الميزاب الذهبي

ALTINOLUK

بذور خير

مجلة فصلية-العدد الثلاثون (كانون الثاني-نيسان ٢٠٢٠)

مقاومة جاذبية الحرام

قال الله تعالى:

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}

(الشمس: ٧-١٠)

كلمة التحرير

أيها الأخوة القرآء:

يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى٤٢]

لا يجوز لأحد كائناً مَنْ كان أن يظلم عباد الله، أو يؤذيَهم أو يضرّهم، أو يعتديَ على مصالحهم، أو يمنعَهم حقوقَهم، أو يَبْخَسَهم أشياءَهم، أو يقصّرَ فيما يجب عليه تجاههم. فالخلق خلق الله، وكلهم عبيد الله، ولا يحق لأحد أن يستعبدهم أو يظلمهم. وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ: «متى استعبدتم الناسَ وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

فالمسلم الحق لا يظلم أحدا ولا يعتدي على أحد لا بلسانه ولا بيده، مهما كانت الأسباب والدواعي والظروف، وهذا ما أكّدَه الرسول ﷺ حين أخبر عن صفات المسلم الحق بقوله: «المسلم مَن سلم المسلمون مِن لسانه ويده» (مسلم، الإيمان، ٦٥ / ٤١)

والقاعدة النبوية الجليلة: "الظلم ظلمات يوم القيامة" لا تستثني أحداً من الناس، ويعظم الوعيد ويشتد على من استغل قوتَه أو مكانتَه أو سلطتَه في ظلم العباد، فظلم العباد من أسرع موجبات الهلاك والخراب للأمم والمجتمعات، ويقدِّم لنا التاريخ بصفحاته البيضاء وبمشاهد الظلم الوحشي فيه عِبرًا عظيمة للبشر، والشمس التي كانت يومًا تشرق على قصور فرعون وهامان ونمرود، وقوم عاد وثمود، وعلى دورهم التي بنوها، فتنيرُ ساحاتِها وأعمدتها وأروقتها، إنما هي نفسها التي أشرقت على خرابها وأطلالها؛ لكن أين أولئك الذين كانوا يبعثون فيها الحركة والحياة؟

وعن أبي ذر ﷺ، عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا،...» (مسلم، البر، ٥٥ /٢٥٧٧)

وفي النهاية يجب علينا القول بأن كل القواعد بما فيها المسائل الشرعية تعطي النتائج طبقًا لاستقامة ونضج الأشخاص الذين يطبقون هذه القواعد. حيث أن القوانين كالسلاح أو السكين الحاد، يستخدم في توزيع العدل والحق. ويمكن أن تكون أيضًا آلة للكثير من المظالم بغلبة النفس. أي أن السكين أو السلاح يمكن استخدامه في الخير أو الشر طبقًا لميول الشخص الذي يمسك به. وفي الحقيقة يتلفع أحيانا قاعدة ما في غاية من الأهمية على يد شخص تغلب عليه نفسه بكسوة غير مرغوبة. وإن إجراءات بعض الظلمة من الحكام في أوقات جرى فيه تطبيق الشريعة الإسلامية تعد من هذا القبيل.

الميزاب الذهبي

مجلة تصدركل أربعة أشهر

العدد الثلاثون

(كانون الثاني– نيسان ٢٠٢٠)

رئيس التحرير

بيت الله دميرجي أوغلو

مدير التحرير

حسام يوسف

هيئة التحرير

بيت اللهّ دميرجي اغلوا

حسام يوسف

آدم أزدمير

د. مراد قايا

التصحيح والتدقيق اللغوي

أ. حسن مرشد

أ. ابراهيم الحسن

التصميم والتنضيد والاخراج الفني

حسام يوسف

دار النشر والطباعة

Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60 / 3C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Tel:+90 212 671 07 00 Faks:+90 212 671 07 48

الإشتراك

لكي تصلكم المجلة بشكل دوري
يمكنكم الإشتراك سنوياً بمبلغ ٣٠ دولار

كما يمكنكم المساهمة بإرسال المقالات والملاحظات على عناوين المجلة

للمراسلة

www.islamicpublishing.org
almizab2011@hotmail.com
almizab2011@gmail.com

المحتويات

٣

مقاومة جاذبية الحرام

علي رضا تمل

١٩

ليلة معراج المعراج ومعراج المؤمن

د. كريم بولادي

٢٨

نحن بحاجة اليوم إلى المؤمنين من أهل القلب

الأستاذ: عثمان نوري طوبّاش

٤٠

الخيال والحقيقة

نور الدين يلدز

كلمة التحرير	١	السخاء طريق الخلاص من أسر الدنيا	٢٧
مقاومة جاذبية الحرام	٣	نحن بحاجة اليوم إلى المؤمنين من	
الظلم والظالم	٧	أهل القلب	٢٨
التكافل الإجتماعي	١٠	خُلق الرحمة بكل الكائنات	٣٨
الألم واحد	١٢	الخيال والحقيقة	٤٠
حينما يكون حكم الله بيناً...	١٣	نشأة الفقه الإسلامي	٤٢
لا تفتش عن أخطاء الآخرين ...	١٦	كيف لنا التخفيف من السيئات	٤٦
ليلة معراج المعراج ومعراج المؤمن	١٩	الصراط المستقيم	٤٨
الزهد و الورع	٢٢	عبرة من التاريخ	٥١
عندما يكون الإنفاق في سبيل الله	٢٦	المضاد الحيوي ضد الحياة	٥٤

ملاحظة: المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

علي رضا تمل

مقاومة جاذبية الحرام

يقول الله ﷻ:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

[الشمس: ٧- ١٠]

إنّ نفس الإنسان "النفس الأمارة بالسوء" تميل نحو المحرمات والمحظورات. وإن وقوع أبينا سيدنا آدم وأمنا حواء عليهما السلام في شراك الشيطان وغوايته وتناولهما من الشجرة المحرمة، ومن ثم التسبب بإخراجهما من الجنة ما هو إلا دليل وإثبات لهذا الدافع. وقد وضع استعداد ارتكاب الذنوب في الإنسان لابتلائه وامتحانه.

فمثلاً ليس في الملائكة استعداد لارتكاب المعاصي والذنوب لأنها غير خاضعة للامتحان. ومن ثم فإن الخسران والفوز ليسا بواردين بحق الملائكة. وأما بالنسبة للإنسان فالأمر مختلف.حيث يقول الله ﷻ:

﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها. فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٧-١٠)

فالملائكة لديها عقل، وليس لديها شهوة؛ والحيوانات لديها شهوة، وليس لها عقل؛ وأما الإنسان فمجتمعتان فيه. فإن تحكمَ عقل الإنسان بشهوته وهيمن عليها فإنه يرتقي إلى مصاف الملائكة، وأما إن تحكمت شهوته بعقله وسيطرت عليه فإنه يهبط إلى منزلة الحيوان، لا بل يصبح أضل وأسوأ.

كلمة العقل تعني المنع، والحبس. فسمي العقل بالعقل لأنه يمنع صاحبه من السقوط في المخاطر والمهالك، والسيئات، ويحفظه منها. ويطلق على رسن الناقة عقال. لأن الرسن يحبس الحيوان ويمنعه من الشرود.

العقل نور، فبه يعرف الإنسان نفسه، ويدرك ماهية الموجودات والكائنات ويفهمها. ويدرك به ما هو لصالحه، وما هو لطالحه.

والهوى ضد العقل. فهو ميل النفس واندفاعها نحو الشيء دون أخذ النتائج بالحسبان. وأكثر ما يكون ميل النفس إلى المحرمات والمحظورات. إذ من الصعب تحمل جاذبية الحرام.

والصبر يعني المقاومة، وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أداء الفرائض، واجتناب المحرمات، وتحمل المصائب والبلايا وتقبلها. وأصعب أنواع الصبر إنما الصبر على المحرمات أو مقاومتها.

يكون الإنسان إنساناً بقدر ما يتبع عقله وإرادته. كما قال ابن الجوزي: "فإن كلب الصيد المدرب أفضل عند صاحبه وأكثر قيمة من غيره من الكلاب". لأنه يصطاد ويسلم الصيد لصاحبه دون أن يأكله لخوفه، أو لعلمه أنه سيكافأ على فعله. فإن كان حتى الكلب يتحكم برغبته الآنية ويتصرف حسب نتائج فعله، فما عسى أن تكون قيمة الإنسان الذي يتطاير أمام دوافعه ورغباته السيئة كأوراق الشجر التي تتطاير أمام الريح؟ .

الهوى ضد العقل. فهو ميل النفس واندفاعها نحو الشيء دون أخذ النتائج بالحسبان. وأكثر ما يكون ميل النفس إلى المحرمات والمحظورات. إذ من الصعب تحمل جاذبية الحرام.

الحيوانات ليست مسؤولة كالناس لأنه لا تمتلك العقل. فهي لا تسجن، ولا تعاقب بالإعدام. ومع ذلك فإن صاحب الحيوان يكون مسؤولاً بقدر الأضرار التي يحدثها حيوانه للغير.

الإنسان بصورة عامة عجول. فهو يتطلع إلى المنافع الصغيرة الآنية أكثر من المكاسب الكبيرة التي تنتظره في المستقبل. فيدمر مستقبله في سبيل شهوة ومتعة عابرة. فأحياناً يدفع الإنسان حياته كلها ثمناً لغفلة، أو جشع،أو إهمال، أو خطأ آني صغير. فالانكباب على المنافع الآنية غير المستحقة تشبه الأكل من الطعم الموضوع في الفخ. الطعم الأعمى يستعبد صاحبه.

لقد ذم الله تعالى في القرآن الكريم اتباع الأهواء والشهوات، وإتيان الأفعال غير محسوبة العواقب، وأمر باتباع العقل، والعلم، والعدل. فيقول الله ﷻ:

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الروم: ٢٩)

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ....﴾ (المائدة : ٤٩)

الذين لا يتبعون إلا أهواءهم وشهواتهم إنما جعلوا هذه الأهواء معبوداً لهم بشكل ما. فالذي يُطاع طاعة مطلقة إنما هو الله تعالى. فمن يعصي الله ويتبع أهوائه إنما يكون عبداً لهذه الأهواء، واتخذها إلهاً له. يقول الله ﷻ:

﴿رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان: ٤٣)

والذين جعلوا أهواءهم إلههم يغدون حطباً لنار جهنم مع معبودهم.

وأما من اتبعوا أوامر الله تعالى فيدخلون الجنة بإذنه. يقول الله ﷻ:

﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾ (النازعات: ٤٠-٤١)

النفس أمارة بالسوء دائمـــــاً. فحتى الأنبياء والرسل استعاذوا بربهم من شر النفس. فعن يوسف عليه السلام يقول الله ﷻ:

﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣)

والذين يخضعون لكل رغبات النفس يتحولون لـ "حمار النفس". والحمار مخصص للركوب، وحمل الأثقال على ظهره. فمن يُركِب النفسَ ظهرَه يكون قد تبادل الأدوار مع الحمار.

فدعك من رغبات النفس الكثيرة، واحذر من أن تقودك هي. لأن رغبات النفس إذا ما استحكمت بأحد،

فإما أن تهلكه، وإما أن تفضحه. فكم من الملذات القاتلة التي أرتها النفس للناس وأدت بهم إلى الهلاك لأنهم لم ينتبهوا إلى السم المدسوس فيها. وكذلك فإن وظيفة الشيطان أيضاً إنما هي تزيين الخطايا والسيئات وتجميلها في عين الإنسان.

ولا شك في أنه ليست كافة الرغبات سيئة. ففي الواقع لولا الرغبات لتوقفت الحياة. فالرغبات أشبه بالرياح التي تهب على أشرعة السفن. فإن لم تكن هناك رياح، فلن تسير السفن الشراعية أبداً، ولكن في الوقت ذاته إذا ما تحولت الرياح إلى عاصفة فإن السفينة الشراعية تترنح وربما تغرق. فالمهم في الأمر هو أن تكون الرغبات متزنة، معتدلة. فقد أودع الله ﷻ الكثير من الرغبات في فطرة الإنسان، وعبر عن ذلك في القرآن الكريم فقال:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ...﴾ (آل عمران: ١٤)

إنه ثمة معايير دينية وأخلاقية معينة للحصول على هذه النعم. علاوة على أن هذه النعم ليست بغايات في حد ذاتها وإنما هي مجرد وسائل. والمؤمن الحقيقي الصادق إنما يلبي رغباته ويشبع شهواته ضمن ضوابط الدين ومعاييره. فقد قال النبي ﷺ قدوة الإنسانية كلها:

"لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به" (فتح الباري، ١/ ٦٥)

فالمسلم من يستسلم لله وللرسول دون قيد أو شرط.

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥)

ثمة معايير دينية وأخلاقية معينة للحصول على هذه النعم. علاوة على أن هذه النعم ليست بغايات في حد ذاتها وإنما هي مجرد وسائل. والمؤمن الحقيقي الصادق إنما يلبي رغباته ويشبع شهواته ضمن ضوابط الدين ومعاييره. فقد قال النبي ﷺ قدوة الإنسانية كلها:
"لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"
(فتح الباري، ١/ ٦٥)

وقد شبه الله تعالى الذين اتبعوا أهواءهم دون مراعاة أوامر ربهم ونواهيه بالكلب الذي يلهث من شدة الحر.

﴿...وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ...﴾ (الأعراف: ١٧٦)

مثل الذين انساقوا خلف جاذبية المعاصي والذنوب دون الالتفات إلى شيء آخر غيرها كمثل المبتلين بالإدمان على الكحول والمخدرات. فالذنوب والمعاصي المقترفة دون هوادة أصبحت وكأنها طبعاً راسخاً فيهم. فقد ختم على أعينهم، وآذانهم، وقلوبهم. وعندما لا يبقى في الإنسان إحساس بالندم، والخجل، والتردد تجاه اقتراف الذنوب والمعاصي تختفي إنسانيته. فكما أن الحيوانات لا تشعر بالخجل والحياء، ولا تشعر بتأنيب الضمير، فإن هذه المشاعر تبدو وكأنها محيت واضمحلت فيمن تجرد من الإنسانية. وعلى الإنسان اجتناب المحرمات كيلا يسقط من منزلة أحسن تقويم إلى منزلة أسفل السافلين. فمن يحوم حول المهالك والمخاطر لا يشعر بنفسه إلا وهو يتخبط وسطها.

يحذرنا الله تعالى من الربا وهو من أخطر الذنوب، فيقول:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة: ٢٧٦)

كما يحذرنا الله تعالى من الزنا، فيقول:

﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: ٦٨)

وفي آية أخرى يأمرنا بالابتعاد عن أكل مال اليتيم.

﴿وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ...﴾ (الأنعام: ١٥٢)

ليس من شأن كل إنسان الصمود أمام المعاصي ولا سيما في أيامنا هذه حيث كثرت وسائل التشجيع عليها والاستهتار بها بل وتجميلها. ولكي لا يحترق المرء داخل ألسنة اللهب عليه أن يكون مثل إبراهيم عليه السلام. فنار نماريد عصرنا هذا إنما هي النيران الموقدة بحطب الذنوب والمعاصي. فإخماد النار الموقدة بالحطب والفحم إنما يمكن باستخدام الماء، وهو سهل ويسير نوعاً ما، وفضلاً عن ذلك فإن هذه النيران المادية موضعية. وأما إخماد نيران الذنوب والشهوات المنتشرة في مكان فليس بالأمر السهل. فالمحتويات الجنسية التي تبثها الوسائل التكنولوجية الحديثة القادرة على الدخول إلى كل مكان وبخاصة شبكة الانترنت والقنوات الفضائية المتاحة أمام الجميع والتي تشجع على الفواحش التي من شأنها تحطيم القيم الأخلاقية، تسمم المجتمعات وبشكل خاص الأجيال الشابة فيها، وتدفع إلى الأمور الدنيوية، وتحجبهم عن الأهداف الأخروية، وتهدر أوقاتهم وطاقاتهم التي تذهب سدى. فمن أفظع وأخطر الجرائم المقترفة في عصرنا الحالي هي تسويق المعاصي والفواحش بتجميلها وتسهيل الوصول إليها بشتى الوسائل، وإضعاف مشاعر الإيمان، والأدب والحياء لدى المجتمع والتي تشكل درعاً واقياً تجاه السيئات والخبائث. وهذا الأمر بمثابة تفخيخ لبنية المجتمع المعنوية بالمتفجرات، والوقوف في وجه هذا التدمير أعظم جهاد. فهي معركة الإنسانية.

إن الحساسية والحذر تجاه المحرمات ضمانة لحياة الفرد والمجتمع معاً. والتساهل واللامبالاة تجاه الذنوب والمعاصي يقلل مع مرور الزمن ردة الفعل ضد المحرمات. ومن ثم تغدو الأمور الشاذة وكأنها أمور طبيعية. فيحل القبيح محل الحسن، ويأخذ الباطل مكان الحق.

لقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالابتعاد عن الشبهات المحيطة بالمحرمات، فقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام قدوة الإنسانية كلها:

"إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه، وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" (مسلم، المساقاة، ١٠٧/ ١٥٩٩)

قال النبي ﷺ:
«اجتنبوا السبع الموبقات»
قيل: يا رسول الله، وما هن؟
قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات

فبالابتعاد عن الشبهات يحفظ الإنسان دينه، وشرفه، وعرضه، وإلا فإنه معرض للوقوع في هذه المحرمات والمهالك شأنه كشأن الراعي الذي يرعى شياهه حول حمى الناس ويوشك أن تتجاوز الحدود كل لحظة. فينبغي على المؤمن الحق أن يضع نصب عينيه حساسية ذاك المتصوف القائل:

"كنا نترك سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب واحد من الحرام".

المحرمات سم قاتل وإن كانت مزينة مزدانة. فالمحب للعسل لن يقربه أبداً إن علم أنه خُلط بالسم. لا يمكن للإنسان الوقوف صامداً أمام جاذبية المحرمات الخادعة إلا بالأخذ بالحسبان الأضرار اللاحقة التي سيتعرض لها، وبإعمال العقل، لا الهوى. فالعقل يقتضي طلب متعة الحلال الدائمة، وليس السعي خلف المحرمات أملاً بتحصيل لذة آنية عابرة.

الدكتور: عمر تشليك

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ...﴾ (إبراهيم : ٤٢)

الظلم والظالم

بكل أسف وحزن وأسى؛ إن مشاهد الظلم والاضطهاد الرهيبة والمفزعة تتوالى دون توقف في يومنا هذا. ودماء المسلمين تتدفق وتسيل كالأنهار بغزارة.

فالحروب الدائرة في هذه الأيام قد حصدت أرواح عشرات الآلاف من الناس، وتسببت بتشريد مئات الآلاف لا بل الملايين من بيوتهم،ووطنهم، فأضحوا بلا مأوى ولا مسكن ولا وطن. لقد قتلت النساء، والأطفال، والشيوخ بدم بارد ودون أدنى شعور بالرحمة والرأفة. وأزهقت أرواح الآلاف من الأبرياء بالأسلحة الكيميائية.

إن الأمر المثير للعجب والاستغراب هو أن الغرب الذي يبذل كل طاقته وجهده في سبيل الحفاظ على بقاء واستمرار أنواع من الكائنات الحية المعرضة للانقراض من أسماك، أو طيور، أو ثدييات، ويسارع إلى إسعاف ومداواة أي حيوان جريح، يلتزم الصمت المطبق تجاه كل هذه الفظائع الجارية في العالم كالأموات المدفونة تحت التراب، ولا تبدي أدنى أمارة دالة على الإنسانية، والشفقة، والرحمة. مما يعني أن الآلاف من المسلمين وفقاً لمفاهيمهم ليس لهم قيمة. وأما الجانب الأكثر إيلاماً ومرارة للأمر هو تركز القوة والسيطرة والهيمنة على العالم بيد مثل هؤلاء الذين تجردوا من الرحمة، واستشرسوا واستوحشوا حتى من أشد الحيوانات الوحشية.

فها نحن نحاول ونجهد لخوض امتحان العبودية في مثل هكذا عالم.

في الواقع، إن الظلم مع الجهالة خاصية ملازمة للفطرة الإنسانية البدائية. حيث بين الله تعالى أن خيانة الإنسان لأمانة العبودية التي أبت السماوات، والأرض، والجبال حملها لما عرضها عليها خشية الفشل من القيام بواجب تلك الأمانة وتحملها، بين الله أن سبب ذلك كون الإنسان "ظلوم" "جهول". وإن سبب إرسال الرسل وإنزال الكتب إلى الإنسان إنما هو هذا الأمر. إذ أن من شأن هذه التعاليم المنزلة من

عند الله تعالى أن تعالج مرض الجهالة لدى الإنسان. وإن العمل بمقتضيات تلك التعاليم التي هي الأعمال الصالحة سوف يشفيه من مرض "الظلم، والعدوان". إلا أن جموع الناس الذين ينشؤون محرومين من مثل هذه التربية والتعليم الديني سوف يبقون منبعاً لمختلف الشرور والآثام بسبب عدم تمكنهم من معالجة أمراض الجهل والظلم. وبالتالي سوف يصدر أشد أصناف الظلم والعدوان من هؤلاء. وذلك لأن الله تعالى قد أخبر أن الكافرين والشاردين عن جادة الدين هم شر الدواب على وجه الأرض:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنفال: ٥٥)

لقد تجسدت هذه الخاصية من العدوان، والظلم، والطغيان، وإراقة الدماء لدى الإنسان بصور وأشكال مختلفة عبر التاريخ البشري. وفي الحقيقة عندما ننظر إلى القصص والأمثال الواردة في القرآن فإننا نواجه مشاهد تصدم الإنسان وتصيبه بالدهشة والحيرة، ومن ذلك:

- أصحاب الأخدود الذين أُحرقوا بوحشية داخل خنادق ملآى بألسنة اللهب. لقد كان الآلاف يُحرقون بالنار لمجرد إيمانهم بالله الواحد الأحد. وكان القائمون بالحرق يجلسون حول تلك الخنادق ويشاهدون بمتعة وحشية احتراق أجساد المؤمنين...

- وفرعون الذي سحق بني إسرائيل في دائرة الظلم والعدوان. لقد كان يبيدهم ليقضي على نسلهم ويمحو أثرهم. فكان يقتل كل المواليد الذكور لبني إسرائيل متذرعاً "بأنه قد يكون أحدهم الفتى الذي سوف يهدم سلطانه" وفق الرؤيا المشؤومة التي رآها في منامه أن "شاباً سوف يهدم سلطنته. وحسب الروايات فإنه قد قتل بهذه الطريقة عشرات الآلاف من الأطفال...

- وسحرة فرعون الذين لم يبالوا بتهديداته التي أطلقها بحقهم "لأصلبنكم، وأقطعنكم". فقد قُطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونُصبوا على أشجار النخيل ليلقوا مصرعهم ويقتلوا بدم بارد. وذنبهم الوحيد أنهم آمنوا بالله الواحد. وكان هؤلاء يتضرعون إلى ربهم في الأنفاس الأخيرة ليفارقوا الحياة وهم مسلمون، وذلك بقولهم في الآية ١٢٦ من سورة الأعراف:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

- وحبيب النجار الذي ضُرب، ورُجم حتى قتل شهيداً لمجرد أنه اتبع الرسل الذين جاؤوا لتبليغ الحق، ودعا قومه إلى الإيمان بأولئك الرسل والأنبياء. لقد كان يتعرض للظلم، ويُسحق، ويُعذب. إلا أنه عند لفظ أنفاسه الأخيرة كان يقول بكل سعة صدر وطمأنينة، وبمنتهى إحساس بالرأفة والرحمة:

﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس: ٢٦-٢٧)

وما أكثر مشاهد الظلم الأخرى للأقوام السابقة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم لتكون عبرة لنا...

إذاً؛ إن مشاهد الظلم الرهيبة ليست حالة خاصة فقط بعصرنا الحالي. من المؤكد أن هذا الأمر لا يستوجب النظر إلى الظلم على أنه شيءٌ طبيعي. فالظلم يبقى ظلماً وعقابه بغاية الشدة. غير أن الأمثلة المذكورة في الأعلى تنير السبيل أمامنا للقيام بتحليلات عميقة تجاه أعمال الظلم، وذلك بتروٍّ وبعقل سليم. لنعلم أن هذا ما

قال رسول الله ﷺ:
«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»
(البخاري: مظالم، ٢٤٤٢)

هو إلا امتحان، ونعرف كيفية التصرف تجاهه، وكذلك فإنها تمنح المؤمن قوة وصلابة في الإيمان والتحمل. وهكذا فإن هذه الأمثلة قد صارت مصدراً لصلابة وتماسك ومواساة النبي عليه الصلاة والسلام الذي ضاق صدره تجاه مختلف أصناف الضغوط، والظلم، والاضطهاد التي تعرض لها.

يجب أن لا ننسى أيضاً أنه إن كان للظالم قوته وظلمه، فإن للمظلوم ربه ﷻ. حيث أن الله ﷻ حتماً سوف يعين المظلوم عاجلاً أم آجلاً. فسُحب الظلمات سوف تنقشع وتنجلي، وستشرق شمس السعادة في أجواء سلام وأمن وطمأنينة الإسلام. فليس بين دعاء المظلوم وبين الله تعالى حجاب، فدعاء المظلوم سوف يستجاب حتماً.

إن المظلوم عندما تتوفر له المنعة والقوة له لأنْ يستعيد كامل حقه من الظالمين في إطار القوانين والتشريعات. فله أن يقتص من الظالم بالوسائل المشروعة، وله. فهذا من حقه الطبيعي الذي لا مرية فيه. إلا أن للصبر والعفو عند المقدرة دور ومكانة متميزة من ناحية سيادة الصلح والسلام في العالم. والأمثلة على ذلك كثيرة: ففي غزوة أحد بعد أن غادر المشركون ساحة المعركة وانصرفوا، توجه النبي ﷺ إلى القتلى. فصادف منظراً مثيراً للاستهجان ومبعثاً للحزن والأسى. حيث أن عمه حمزة رضي الله عنه الذي لطالما أحبه كان ملقى على الأرض شهيداً، وقد مثل بجسده الطاهر، ممزق الأحشاء، ومقطوع الأنف والذراعين. فلما رآه على تلك الحالة قال:

"لولا أن تحزن النساء ما غيبته، ولتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطيور حتى يبعثه الله مما هنالك، ولئن ظفرت بقريش لأمثلن بثلاثين رجلا منهم"

فأنزل الله ﷻ في ذلك:

﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٢٦-١٢٧)

ثم أمر به فهيء إلى القبلة ثم كبر عليه تسعا، ثم جمع عليه الشهداء كلما أتي بشهيد وضع إلى حمزة فصلى عليه، وعلى الشهداء معه، حتى صلى عليه وعلى الشهداء اثنتين وسبعين صلاة، ثم قام على أصحابه حتى واراهم، ولما نزل القرآن عفا رسول الله ﷺ، وتجاوز وترك المثل. (الطبراني: المعجم الكبير، ١١، ٦٢، ١١٠٥١)

يقول الله ﷻ:

﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٢)

إذاً؛ إن مقابلة السيئة بمثلها عدالة، وأما الصبر على السيئة والعفو عنها فهو فضيلة عظيمة. فهذه الآيات المباركة تحث جميع المؤمنين من خلال شخص النبي ﷺ على الالتزام الدائم بالاعتدال والفضائل في تصرفاتهم، والتحلي بالصبر، والتصرف بالحسنى. ومن أورع وأجمل وأسمى نماذج العفو والتسامح الذي لا مثيل له هو نموذج العفو الذي قدمه النبي ﷺ يوم فتح مكة مع ألد أعدائه من المشركين.

كلنا أمل ورجاء في التخلص من الظلم الذي نرزح تحته ونستعيد قوتنا وسيادتنا، لأن ندافع عن حقوق المظلومين في شتى أنحاء الأرض كما ندافع عن حقوقنا، وأن نقدم نماذج من العفو والمسامحة عند المقدرة لنستميل بها قلوب الناس إلى الإسلام بما فيهم الظالمين أنفسهم، لينعم الناس بحياة كريمة ملؤها السعادة، والرفاهية، والسرور...

من خصائص الإسلام الرئيسية

التكافل الإجتماعي (٩)

الدكتور: مُراد كَيا

قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»

(مسلم: اللقطة، ١٨/ ١٧٢٨)

التكافل في الإسلام ، يمثل فكرة متقدمة ، تتجاوز مجرد التعاون بين الناس ، أو تقديم أوجه المساعدة وقت الضعف والحاجة.

ومبناه ليس الحاجة الاجتماعية التي تفرض نفسها في وقت معين أو مكان بعينه ، وإنما يستمد التكافل الاجتماعي في الإسلام مبناه من مبدأ مقرر في الشريعة، وهو مبدأ الولاية المتبادلة بين المؤمنين في المجتمع. فالإنسان مخلوق اجتماعي خِلقةً؛ لا يمكنه العيش وحيداً، فهو بحاجة إلى أشخاص آخرين يأنس بهم، وإلى جانب هذا فإنه خلق ضعيفاً فهو ليس قوياً بما يكفي لتلبية جميع احتياجاته بنفسه، ولذلك يجب أن يعيش الناس في مجتمع ويتعاونوا فيما بينهم ويؤدوا ما تستلزمه عبوديتهم لله معاً، يقول الرسول ﷺ:

"إِنَّ اللهَ لاَ يَجْمَعُ أُمَّتِي، عَلَى ضَلاَلَةٍ، وَيَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ" (الترمذي، الفتنة، ٧/ ٢١٦٧)

ويقول عليه الصلاة والسلام:

"الجماعة رحمة والفُرقة عذاب" (أحمد، مسند، ٤، ٢٧٨، ٣٧٥)

إن الإسلام بأمره الناس بالصلاة في الجماعة وصلاة الجمعة والعيدين وفريضة الحج والزكاة والإنفاق والأضحية يحثهم على الاجتماع دائماً في العبادات وفي العلاقات البشرية أيضاً كتجهيز الجنازة والأعراس وعيادة المريض والمحافظة على إبقاء الروابط بين الأقارب قوية والاشتغال بالمحتاجين.

ومن المؤكد وجود بعض الصعوبات الناجمة عن التعامل مع الناس لذا تحمّل الناس تتطلب منهم التضحية ويَعِدُ الإسلام المسلمين الذين يعيشون ضمن المجتع ويحمّلون أنفسهم عبء الغير بمكافأة كبيرة.

لقد كان نبينا صاحب الخلق واللطف ﷺ لا يقلّل من شأن أي أحد من الناس حتى الفظّ منهم مع تعرضه لإساءاتهم بل كان يعاملهم بالحسنى. وقد آلم هذا الأمر عمه العباس رضي الله عنه فقال له: «يارسول الله، إني أراهم قد آذوك وآذاك غيرهم، فلو اتخذت عريشاً تكلمهم منه؟» فقال:

"لَا أَزَالُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ يَطَؤُونَ عقبِي، وَيُنَازِعُونِي رِدَائِي حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يُرِيحُنِي مِنْهُمْ" (الدارمي، المقدمة، ١٤؛ ابن أبي شيبة، ٧، ٩٠؛ ابن سعد، ٢، ١٩٣)

ويقول الرسول ﷺ موصياً أمته بالشيء نفسه:

"المُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ المُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ"

(الترمذي، القيامة، ٥٥/ ٢٥٠٧؛ ابن ماجه، الفتن، ٢٣؛ أحمد، ٢، ٤٣)

إن الإسلام يوجه الناس إلى الفعاليات الاجتماعية وعيش حياة ديناميكية (حيوية) من خلال أمره بالعمل لتوفير الرزق وبالزواج لتأسيس أسرة وإنجاب أطفال وبالتصدق والعطاء واغتنام الوقت على نحو جيد وكذا يأمر باستغلال الدنيا بأقصى درجة للفوز بالآخرة، ويطلب منا تبليغ الحقائق إلى الجميع وإبعادهم عن الأخطاء، كما يأمرنا بالحفاظ على المال والنفس والعرض والشرف والنسل والوطن والدفاع عنها وهو يدفع الناس ليعيشوا حياة من النشاط والحيوية الاجتماعية والنهضة من خلال زرع فكرة أنه ما من خير يعمله أحدهم ولو كان مقدار ذرة ولا من شر ولو كان مثقال ذرة إلا وسوف يلقى جزاءه. فيقول الله ﷻ:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧-٨)

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦)

والإسلام بحثّه الناس على الاجتماعية لا يبعدهم مطلقاً عن عبادتهم وتفكرهم الفردي وهو ينصحهم بأن يؤدوا جميع فعالياتهم الاجتماعية في سبيل إرضاء الله تعالى وبنية العبادة له، ويريد منهم أن يواصلوا العيش بشعور الوجود مع الله تعالى حتى وهم مع العامة على أساس مبدأ "الاختلاء بالله في حضور الغير"وبتعبير آخر يعيشون ضمن إطار قاعدة "اليد واقعةٌ في همِّ الربح، والفؤاد في همِّ الحبيب"

ثم إن مسائل كالتفكر في الموت والإيمان بالقدر والتوكل والاستسلام لا توقع في العطالة واليأس مطلقاً كما يفهم البعض خطأً، بل على العكس إنه يعودهم على العمل بدقة أكثر وعزم أقوى وبطمأنينة القلب.

فالإنسان الذي يتذكر الموت يعزم على القيام بعمل أكثر وأجود بعد استحضاره ضيق الوقت، ولايضيعه بأمور ليس ذات أهمية، وهو بذلك لا يقع في المعاصي التي يجره إليها كل من النفس والشيطان، إن المؤمن الذي يؤمن بالقدر ويعي التوكل والإذعان بحق يدرك عظم الخطأ إن هو قام بعمل يقدر عليه من غير أن يتوكل على الله تعالى، وبالتالي يرتاح المؤمن حين يترك النتائج على الله تعالى بعد قيامه بكل ما في وسعه، وغير المؤمن بالقدر والرافض للتوكل والاستسلام فما من أمر أفظع مما هو فيه، ومثل هؤلاء الناس يبقون في قلق دائم فيما يخص النتيجة المنتظرة لأعمالهم التي قاموا بها وفي حال ظهرت النتائج على خلاف ما يتوقعونه يصابون بانهيارات روحية كبيرة. وأما المؤمن والمصدق بالقدر والمستسلم لله تعالى فإنه حتى ولو لم يحصل على النتائج بعد القيام بمسؤولياته فهو يلقى الثواب بنيته وإلى جانب هذا يكون محمياً من الوقوع في الحزن الشديد وبعبارة أخرى يكون قد فاز من الناحية المادية والمعنوية أيضاً.

إن الذين يداوون القلوب المريضة، ويبعثون السكينة في الصدور الضيقة، ويرشدون العقول الحائرة، ويُسرُّون الأفئدة المتعبة إنما هم أولياء الله وأحبابه، قد حملوا المحبة لجميع الخلق، وجعلوا قلوبهم كهفًا يلجأ إليه طالبو الرحمة، ويأوي إليه المحتاجون.

الألم واحد

الأستاذ: مَدَتْ بالا

هل عانيتم من ألم شديد يوماً؟ هل فقدتم محباً قط؟

هل شاهدتم قريباً لكم وهو ينتهي؟ هل تعرضتم لمواقف بتّم فيها عاجزين؟ هل وقفتم يوماً بيأس وأنتم تنتظرون يد العون لتمتد إليكم؟ هل ذرفتم الدموع من أعماقكم؟ هل تشعرون بدموع أم فقدت طفلها؟ أو بنشيج طفل فقد أمه؟ أو بدموع أطفال يتجولون على الأوحال بين خيام المخيمات حفاة الأقدام وجوعى البطون؟ هل شاهدتم دموع أم تذوب رويداً رويداً حسرة وألماً من عجزها عن العثور على كسرة خبز لتطعم بها أطفالها؟ هل بإمكانكم تخيل انهيار أب عاجز عن حماية بلده وماله وعياله، وفاقد لحلم الغد؟ أو عجز امرأة فقدت زوجها؟ أو وحدة شاب؟ أو هل شاهدتم فقد أب لولده اليافع برصاصة طائشة عمياء؟ بماذا أحسستم وقد رأيتم دموعاً تنفجر كالبراكين من أعماق أم قدمت بطلها، شبلها شهيداً في سبيل وطنها؟

احصوا وتخيلوا قدر ما تستطيعون من أشباه هذه الأحوال!

فالنار تحرق حيثما تشتعل. ويخترق الألم الجسد ليصل إلى الأعماق. وينزل من الجميع الدمع ذاته. تلك القطرات التي تتولد من أعماق أرواحنا تبدأ بالتدفق من ينابيع إنسانيتنا لتنسكب من أعيننا. كلها بيضاء اللون تنساب من الخدود نحو الأسفل كالشلال.

إنه الدمع ذاته، سواء نزل من الإنسان الأبيض أو الأسود أو الأصفر. إنه ذاته لدى الكبير والصغير، الشيخ والشاب، الرجل والمرأة.

فالدمع المتساقط من عيني أم صومالية هو ذاته المتساقط من الأم الأراكانية والسورية.

ولا فرق بين الدمع الذي يذرفه طفل في اسطنبول أو في لندن، ولا في بكين أو برلين. لا فرق سواء في الشرق أو الغرب، آسيا أو أوروبا. فعندما يحل الألم يحرق القلوب ويمضي.

أليس هناك ألم يصيب الناس عندما يموت العشرات يومياً في غزة؟ كونوا واثقين أن الألم الذي يصيب السوريين، والصوماليين، والأراكانيين ليس بأقل. فلديهم أمهات، وآباء، وأخوة، وأزواج، وأطفال تحترق قلوبهم. فكلهم بشر، ولديهم قلوب وأرواح تشعر وتحس أيضاً.

فهلما نقوم بأمور لا تتسبب بالبكاء. تعالوا نشعر بتلك الآلام في دواخلنا ولو قليلاً. تعالوا نشارك الآخرين آلامهم، ونحاول تليين قلوبنا. إنه الدمع الذي يغسل الإنسان ويطهره. وانظروا بعدئذ وشاهدوا ما أكثر الأمور التي ستتغير.

إن شعور الإنسان بالألم ما هو إلا دلالة على أنه لا يزال حياً. وشعوره بآلام الآخرين يعني أنه إنسان. الإحساس يحتاج إلى سماع الصرخات الصامتة، يكفي أن لا تصاب آذان قلوبنا بالصمم.

عندما نشعر أن الإنسانية واحدة لا تتجزأ حينها ستقل الآلام. فعلي رضي الله عنه يقول: "الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق".

فينبغي أن نحافظ على كرامة النظير في الخلق.

ونحمي أخلاق النظير لنا في الخلق.

ونحمي حقوق النظير لنا في الخلق.

وحينها قد تكون باللون ذاته إلا أنه ستنهمر في العالم دموع الفرح بدل الألم والحزن.

حينما يكون حكم اللّه بيناً...

الدكتور. آدم أركول

الإنسان كائن يميل في كثير من الأحيان إلى تأليه أهوائه وشهواته ورغباته. فهو يحمل في داخله نزعة الربوبية لا العبودية. وعندما تتوفر له القوة والمنعة تتصاعد في نفسه مشاعر التأله، وبسط السيطرة، واستعباد الآخرين. ويُكره الحق لأن يكون تبعاً لهواه عوضاً أن يُخضع نفسه وهواه للحق. يقول عدي بن حاتم:

أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب. فقال:

"يا عدي اطرح عنك هذا الوثن"

وسمعته يقرأ في سورة براءة:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [التوبة: ٣١]، ثم قال:

"أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه". (الترمذي، التفسير، ٩/ ١٠)

إن نزعة التأله تظهر أحياناً لدى أصحاب السلطان والملك مثل فرعون، وتظهر أحياناً عند أصحاب المال مثل قارون، وأحياناً تطل برأسها لدى أهل العلم والرهبان. وإننا في مقالنا هذا سوف نلفت الأنظار إلى الأعمال التحريفية لبعض من التاريخيين والحداثيين الذين ينظرون إلى الأحكام التي أنزلها الله ﷻ على أنها من تشريعات الماضي التي عفا عنها الزمن، ومن ثم ونتيجة لاعتبارهم هذه الأحكام غير ملائمة لظروف العصر يعمدون إلى إخراجها من سياقاتها عن طريق تفسيرات منحرفة لتتوافق مع أهوائهم أو أهواء جماعة من الناس. ولعل الذين ينهضون بمثل هذه الأعمال يعتبرون أنفسهم مصلحين لا مفسدين، لا وبل يعتقدون اعتقاداً جازماً بذلك. وهم يذهبون إلى القول بضرورة أن تكون الأحكام التي شرعها الله ﷻ محدودة بظروف زمنية ومكانية معينة، وأنه من غير الصواب تطبيق تلك الأحكام في مختلف الأزمنة والأمكنة. وأصحاب مثل هذه الدعوى هم الذين يقصدهم ربنا ﷻ بالتحذيرات الواردة في القرآن الكريم:

﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا...﴾ [الأنعام: ١١٤]

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾

[المائدة: ٤٩]

ودعونا نشير هنا إلى حقيقة قرآنية أخرى لا يراها التاريخيون أو لا يريدون رؤيتها عن عمد: رغم أن الفارق الزمني بين موسى عليه السلام (القرن ١٣ ق. م) وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام (القرن ٧ ب. م) يبلغ ألفي عام فقد تم وصف اليهود الذين كانوا على زمن النبي محمد عليه الصلاة والسلام بالكفر، والظلم، والفسوق بسبب عدم عملهم بالأحكام التي أنزلت عليهم في التوراة. أي أن الذين أقدموا على تحريف أحكام الله تعالى من خلال المقاربة التاريخية تعرضوا لتهديد إلهي عظيم. وإن ربنا سبحانه الله وتعالى يحذرنا نحن المؤمنين من خلالهم من الوقوع في الخطأ ذاته:

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾ [المائدة: ٤٣-٤٥]

من يدري كم من الحاخامات والرهبان الذين استثقلوا هذه الأحكام وعملوا على تغييرها وتحريفها. متذرعين بذرائع واهية من قبيل أن البشرية في الأمس ليست كما هي الآن، والأحكام التي نزلت بحقهم في الماضي كانت صحيحة بالنسبة لهم، إلا أنها لا تتماشى مع المجتمعات الحديثة المعاصرة، وإنما لا بد من إحداث عقوبات رادعة مختلفة تتلاءم مع روح العصر. ولكن هذه الآيات التي أوردنا طائفة منها في الأعلى تشير إلى أن مثل هذه الأفكار ما هي إلا إشكالات إيمانية. إنها عظة عظيمة لمن أراد أن يتعظ!

لا يمكن تغيير الأحكام القطعية المبينة بشكل صريح لا لبس فيه في الكلام الإلهي من خلال الآراء والقناعات الشخصية الظنية. وما يقوله أستاذنا البروفسور الدكتور سعيد شيمشك في هذا المجال يُعد بمثابة إضاءة ودليل في طريق من اختلطت عليه الأمور وتلوث فكره حول المسألة:

"لا يمكن القول أن كل آية من آيات القرآن الكريم إنما نزلت لحل مشكلات المجتمع الذي نزلت فيه، أو للإجابة على التساؤلات والحوادث التي جرت في ذلك العصر. وحتى أن أسماء الأعلام والأماكن أو الأزمنة الواردة في الآيات التي نزلت بشأن أعمال وتصرفات أشخاص معينين أو بحق حوادث معينة إنما هي محصورة في أحوال استثنائية للغاية."

إن عدم ذكر الزمان والمكان اللذين جرت فيهما الحادثة إلى جانب أسماء الأشخاص إنما يهدف لإضفاء صفة الشمول والعموم على الرسائل الحقوقية والأخلاقية التي تتناولها الآيات القرآنية. حيث يتحدث علماؤنا الأفاضل عن نوعين من أسباب نزول الآيات. وهما أسباب النزول الخاصة، وأسباب النزول العامة. فأما الآيات التي لها سبب نزول خاص فيقصد بها الآيات التي نزلت بشأن حادثة معينة. وأما تلك التي لها سبب نزول عام فهي الآيات النازلة لإصلاح المسائل العقائدية، والأخلاقية، والاجتماعية التي تطرأ في حياة

الناس إلى يوم القيامة. فهذه الآيات لم تنزل لسبب معين. وكذلك أشار العلماء إلى أنه حتى الآيات التي نزلت لسبب أو حادثة معينة لا تنحصر بذلك السبب أو تلك الحادثة، وإنما لها حكم عام، وعبروا عن ذلك بالقاعدة الشرعية:

"خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم".

لا يمكننا تغيير حكم النص القطعي استناداً إلى أمر ظني. أي إذا لم يذكر في النص الدال على حكم ما علةً الحكم "سبب صدور ذلك الحكم" أو لم يرد في أي من آيات القرآن الأخرى إشارة إلى هذه العلة فلا يمكننا القول من تلقاء أنفسنا: "أن علة هذا الحكم هي كذا، وتغير الحكم لتغير العلة. حيث أن الله ﷻ يقول بعد بيان عدم وجود مانع شرعي فيما إن اتفقت المرأة المطلقة على الزواج مرة أخرى بزوجها السابق بعد انتهاء العدة:

﴿والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]

فورود هذه العبارة في نهاية الآية الأخيرة من الآيات التي تتحدث عن الزواج، والمهر، والطلاق، وانتظار العدة ملفت للانتباه. إضافة إلى أن عبارة "والله يعلم وأنتم لا تعلمون" ترد في الكثير من الآيات القرآنية. إذاً؛ إن علم الإنسان عاجز عن إدراك علل بعض الأحكام الشرعية".

لا ريب أن تفسيرات علمائنا الأفاضل ستكون متعددة ومختلفة في الآيات غير واضحة الدلالة على معنى معين وقابلة لتفسيرات مختلفة. وكذلك يمكن الاجتهاد في كل زمان ومكان بشأن الأمور أو المسائل التي لم يبين حكمها أيضاً. ومن البديهي أن يظهر تباين واختلاف في النتائج التي يتم الوصول إليها بهذه الطريقة حسب ظروف الزمان والمكان، فهذا أمر طبيعي ومعروف لا ينكره أحد. لأن الاجتهادات ليست قطعية، وإنما ظنية. إلا أننا نشاهد اليوم بعض المتجرئين الذين يذهبون إلى القول بضرورة تغيير حتى الأحكام التي بينها ربنا عز وجل بشكل واضح وصريح بحجة عدم ملاءمتها للعصر.

كيف لمؤمن أن يعتبر علمه، وعقله، وإدراكه المحدود كافياً ويتجرأ لتغيير حكم وضعه مولانا عز وجل الذي لا حدود لعلمه؟. في الواقع مثل هؤلاء تصعب عليهم العبودية لله تعالى. حيث لا بد أن نتذكر أن التوفيق في امتحان العبودية لا يكون حسب معاييرنا نحن، وإنما يكون حسب كيفية تطوير سلوكنا وتصرفاتنا أمام أوامر الحق سبحانه وتعالى ونواهيه. فمهمة الأنبياء والرسل على مر التاريخ كان العمل على تحويل المجتمع إلى الشكل الذي بينه وارتضاه الله تعالى ومواءمته مع الأحكام التي شرعها، لا مواءمة الأحكام الإلهية مع المجتمع بالاعتماد على الحياة وقيمها. وإن قلوب المؤمنين، وهمة وجهود العلماء والعارفين اليوم تصب في الاتجاه ذاته. وأما الأصوات والدعوات النشاذ فهي في كثير من الأحيان ليست إلا من همسات النفس والشيطان.

قال الله تعالى:

﴿فَلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾

[النساء: ٦٥]

وأخيراً لا بد من الاشارة إلى بعض آثار تحكيم شرع الله ﷻ:

- عزّ وظهور للمسلمين.
- ونيل رضوانه ومحبّته ونيل السعادة في الدنيا والآخرة.
- وحدة صف المسلمين ووحدة كلمتهم. النصر والتمكين،
- والأمن والاستقرار في البلاد التي تطبق تحكيم شرع الله في جميع جوانبها.
- السعة في الرزق، والعيشة الكريمة.

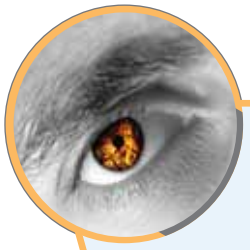

لا تفتش عن أخطاء الآخرين وإنما فتش عن أخطائك

عن ثور الكندي أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يعس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل في بيت يتغنى، فتسور عليه، فقال ﷺ: يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت في معصيته؟ فقال: وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي، إن أكن عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاث، قال: {وَلا تَجَسَّسُوا} (الحجرات:١٢) وقد تجسست، وقال: {وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} (البقرة: ١٨٩) وقد تسورت علي، وقد دخلت علي بغير إذن وقال تعالى: {لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا} (النور: ٢٧) قال عمر ﷺ: فهل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم، فعفا عنه، وخرج وتركه. (السيوطي: جامع الأحاديث، ٢٧، ١٧٣/ ٢٩٨٧٣؛ المتقي كنز العمال، ٨٨٢٧)

محمد لطفي أرسلان

تعرف كلمة التجسس لغة: أنها محاولة الشخص الحصول على معلومات والاطلاع على أخبار لا تهمه بطريقة سرية وغير مشروعة. وإذا ما اعتبر هذا الفعل على أنه زيادة فضول فيفيد معنى إيجابياً. وقد حظره القرآن الكريم في سورة الحجرات في إطار العلاقات القائمة بين المؤمنين، فقال: {وَلا تَجَسَّسُوا} (الحجرات:١٢)

وفي هذا الحظر يُستخدم بمعنى البحث عن العورات والمعايب، وكشف ما ستره الناس، فنهى الله عنه، وطلب من المؤمنين عدم الكشف عما ستره على الناس من قصورهم وعيوبهم. وقد قال رسول الله:

"من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته" (السيوطي: الجامع الثغير، ١/ ١٣٩٤٤؛ المتقي كنز العمال، ٣، ٤٥٧ ٧٤٢٧)

وهناك تهديد بفضح هذا الفعل الشنيع في الدنيا قبل الآخرة:

"من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله" (الترمذي، القيامة ٥٣)

وبشارة لمن ستر ولم يفضح ولم يعير:

"لا يستر عبد عبدا في الدنيا، إلا ستره الله يوم القيامة" (مسلم، البر، ٧٢)

إن حظر التجسس وتحريمه إنما هو بهدف حفظ أسرار الناس، وحماية حياتهم الخاصة. فأول ميدان أو حياة ينبغي حمايتها هي حياتنا الخاصة، أو خصوصياتنا. وتحقيق التناغم والتوازن في حياة الإنسان الداخلية وانسجامها إنما يكون بإدارة الظنون، والأحاسيس، والمشاعر والمسلمات لديه والتحكم بها. ويبدو للوهلة الأولى أنه لا يمكن التحكم بما يجب أن نسمعه ولا نسمعه، وما يجب أن نراه ولا نراه. وفي الواقع هذا هو المطلوب منا بالذات. وأول شرط ليتمكن الإنسان من إدارة ذاته والتحكم بها إنما هو الاهتمام بسمعه، وبصره، وقلبه والتركيز عليها. وليس من السهل الوصول إلى هذه المرحلة. والخطوة الأولى تبدأ بالنية الصادقة والسعي بإخلاص. والحفاظ على الهمة العالية التي أشار إليها كبارنا يشمل وضع الإنسان غايته نصب عينيه وفي قلبه دائماً، ووضع قيود معينة على عالمنا الداخلي كما على حواسنا الخمسة. وحينما يكون الأمر فإنما ما نراه ونسمعه ونشعر به يتخذ حالاً وقواماً معيناً مع الزمن. ومع التقدم في الطريق مسافة معينة يتبين لنا ضرورة عدم الوقوف والسعي وراء أي شيء لا نمتلك بحقه علماً قطعياً. لأن كل من السمع والبصر والقلب

مسؤول عن ذلك. فالبصر مسؤولية، وكذلك السمع... حيث يقول الله تعالى:

{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا} (الإسراء: ٣٦)

وعلاوة على ذلك يجب الانتباه أيضاً إلى المشاعر التي تؤججها هاتان الحاستان في القلب.

والميدان السري الآخر الذي يجب حفظه وحمايته إنما هو خصوصية إخواننا الذين نعد مسؤولين عن بعضنا البعض. فإخواننا هم المرايا التي نشاهد من خلالها أنفسنا. وصفاء المرآة من صفاء القلب. وما نراه في أخينا إنما هو في الواقع ما جربناه في أنفسنا. وإن لم يكن كذلك فالمصيبة أعظم، لأن هذا يعني أننا لم نرتق إلى الحقيقة الواردة في الآية القرآنية:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} (الحجرات: ١٠)

فالباحث عن الأخ ينبغي أن يكون أخاً أولاً. ومن لم يعثر على الأخ فهو من لم يستطع أن يكون أخاً أصلاً. فمستوانا بقدر مستوى إخواننا. فالذي يهتم بمدى المسافة التي يمكن أن يسيرها مع إنسان، عليه أن يهتم بمن يرافق. ومن يتساءل بمن يثق، عليه أن يبحث عن الذين أشعرهم هو بالثقة.

وحسن الظن بالإخوة من أولى شروط الأخوة، وحفظ حياة الأخ الخاصة هو الهدف الأسمى والنهائي لهذا الحق. فالذي اخترق خصوصية أخيه بالتجسس ومن ثم أفشى أسراره فإنه يكون قد ارتكب بحقه إساءة أعظم. وهذه السيئة هي كسر وتحطيم ثقته. فمن أفشيت عيوبه قد يفقد مصداقيته فيما يتعلق بما قد يفعله ويقدم عليه لأن حدوده اخترقت وتم تجاهلها. فخوف عمر بشأن الشيخ كان يتعلق بالمساس بهذه الثقة والأمانة أكثر من إخلاله بخصوصية الشيخ. فمن رأى الشيء لم يعد مهتماً بما رأى. فالذي علم بما تمت رؤيته قد تجاوز الحاجز أو الحد النفسي الذي يبقيه أو يمسكه عند نقطة ما. وأما إن تم تجاوز ذلك الحد فهذا يعني أنه لم يعد هناك حد لن يتم تجاوزه. ولهذا فإن حماية وحفظ أسرار أو حدود أنفسنا وإخواننا إنما يعني في الأساس لجم نزواتنا، ولامبالاتنا، وتجرؤنا.

والميدان الآخر الذي يخترقه ويحطمه التجسس إنما هو دائرة أسرار العامة. فإفشاء معصية على الملأ في المجتمع يعني إن جاز التعبير اقتراف جريمة عامة. فالمعصية التي تُذاع على الملأ أشبه بالأوساخ، بالجيفة المرمية في مكان مفتوح تزعج رائحتها المنتشرة في الأجواء كل من حولها. ومن يفضح معصيته وينشرها فإنه من جهة يلوث أذهان وقلوب الآخرين، ومن جهة أخرى يلغي تلك الدائرة السرية التي لا يطلع عليها سوى الله تعالى وهو. ومن يفشي سره على الملأ فإنه يكون وكأنه قد وضع عبوة ناسفة في أساس الخير، والصلاح، والصدق المشترك. لأنه بهذا التصرف الأناني قد تسبب بإفراغ مفهوم السرية والستر من مضمونه. فإفشاء السر وإزاحة ستره يخرجه عن كونه سراً، ويتم تعريف الحياة الخاصة في هذا الوسط من جديد بطريقة أقرب إلى العدم. يقولون المثال السيء لا يكون مثالاً؛ وفي هذه الحالة لا يبقى المثال السيء مع مرور الزمن عند حد المثال، وإنما يتجاوز مسألة المثل ويصبح بذاته أصلاً.

ربنا تعالى هو من يحدد الخطأ والصواب، وهو من يبين المعاصي من غيرها. وما الحلال والحرام إلا تصنيف ظهر نتيجة لهذا التحديد. وقد شُبه الحرام في أحد الأحاديث النبوية بالحمى. فلكل سلطان حمى يحظر دخوله، وحمى الله تعالى هو المحرمات. وبناء على ذلك فإن اقتراف المعاصي قلة احترام وتقدير تجاه الله تعالى العليم بكل شيء، ولكن الأعظم من قلة الاحترام والاستهتار هذا هو إفشاء سوء الحال الذي بالإمكان ستره وإخفاؤه عن العباد. إن إخفاء المعصية، وعدم إفشائها أدب، وأما الأدب الأعلى والأسمى منه فهو ستر معصية الغير. لأنه يجب معرفة فضيلة الإنسانية بالثواب، والخير والصلاح، وليس بالمعاصي، والسيئات والخبائث. فمن المعيب معرفتها بالمعاصي.

يريدنا الله تعالى أن نعرفه بحدوده. فحدوده هي نقاط تنسيق الارتباط بيننا وبينه. والذي يراعي حدوده ويأخذها بعين الاعتبار لا يتجرأ على التفتيش عن أخطاء أحد، إذ أن مثل هذه المحاولة من أعظم الأخطاء. لذا فإنه يسعى قبل كل شيء وراء أخطاء نفسه، ويبذل جهده لأن يكون قدوة ومثالاً بحاله، وإن اطلع على معصية أو شاهد خطأ فإنه لا يفشيه، وإنما على العكس يعمل على ستره. فهو يعلم أن عباد الله تعالى يتقلبون من حال إلى حال بتجليات ربهم الذي هو كل يوم في شأن. حيث أن الذي نراه على معصية في حين، قد نجده رجع عنها في حين آخر. فالقلوب بيد الله ﷻ. وفضلاً عن ذلك فإن كل لحظة تمضي وفق أحكام الإسلام ومبادئه وسيلة للطهارة، والتجدد والانتعاش الذي يبث الأمل في الإنسان. فنحن نولد من جديد كل لحظة. فوضوؤنا، وصلواتنا، ومساجدنا، وأعمالنا الخيرة، وإخواننا المؤمنين وسائل للتطهر.

ومن أجمل الأمثلة على ذلك هذه الحادثة التي جرت في عصر السعادة:

بينما رسول الله ﷺ في المسجد، ونحن قعود معه، إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حدا، فأقمه علي، فسكت عنه رسول الله ﷺ، ثم أعاد فقال: يا رسول الله إني أصبت حدا، فأقمه علي، فسكت عنه، وأقيمت الصلاة، فلما انصرف نبي الله ﷺ قال: أبو أمامة: فاتبع الرجل رسول الله ﷺ حين انصرف، واتبعت رسول الله ﷺ أنظر ما يرد على الرجل، فلحق الرجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني أصبت حدا، فأقمه علي، قال أبو أمامة: فقال له رسول الله ﷺ: «**أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟**» قال: بلى، يا رسول الله قال: «**ثم شهدت الصلاة معنا**» فقال: نعم، يا رسول الله. فقال له رسول الله ﷺ: " **فإن الله قد غفر لك حدك – ذنبك –** ". (البخاري، الحدود، ٢٧؛ مسلم، التوبة، ٤٥/ ٢٧٦٥)

ستر العيوب

يا مَن يرجو الله واليوم الآخر، لسانَك لسانَك، صُنْه عن أعراض المسلمين، وسمْعَك سمعَك، صُنه عن التحسُّس والتجسس، فهذا – وربي – عملٌ ليس بخير، ولا يأتي بخير.

تذكَّر أخي، كما أنَّ للناس عيوباً، لك عيوبٌ أيضاً، وكما أن لهم حرماتٌ ومحارم، لك أيضاً مثل ذلك..

تذكر أنَّ الجزاءَ من جنس العمل، جزاءً وفاقًا، فمن فضح إخوانَه المسلمين، سلَّط الله عليه ألسنةً حداداً تهتك ستره، وتفضح أمره.

يقول بعضُ السلف: أدركتُ أقواماً لم يكُن لهم عيوبٌ، فذكروا عيوبَ الناس، فذكر الناسُ لهم عيوباً، وأدركت أقواماً كانت لهم عيوبٌ، فكفُّوا عن عيوب الناس، فنُسِيَت عيوبُهم.

ليلة المعراج ومعراج المؤمن

الدكتور: كريم بولادي

لا شك أن حادثة الإسراء والمعراج من أهم معجزات النبي عليه الصلاة والسلام. وأنَّ أعظم هدية لحادثة المعراج وأهمها هي عبادة الصلاة، إلى جانب الأحكام المهمة الأخرى التي شرعت فيها والتي تدور حول تشكيل مجتمع طاهر مثالي. وإن تبليغ الله تعالى الصلاة للنبي عليه الصلاة والسلام بطريقة مباشرة في حضرته ليلة المعراج دون إرسال الملائكة إلى الأرض كما في العبادات والتشريعات الأخرى يدل على مدى أهمية هذه العبادة في حياة المسلم من الناحية الدينية والروحية. ولهذا فقد سميت عبادة الصلاة في الثقافة الدينية بـ "**معراج المؤمن**" للإشارة إلى أنها وسيلة مهمة وضرورية في طريق رحلة العبد نحو الله تعالى ووصوله إليه. ولذلك يجب ذكر حادثة المعراج والتفكير بها، وتقييمها، ودراستها مع الصلاة.

وفي هذه الليلة أوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام بأواخر سورة البقرة. وهذه الآيات إلى جانب بيانها أبعاد التسليم والطاعة ومدى الإخلاص والصدق، تحدد معيار ومستوى انقياد وخضوع المجتمع المسلم. وإننا اليوم بحاجة إلى التمسك برسالة هذه الآيات وبطابعها ومبدأها العالمي بنفس المستوى من الصدق والإخلاص والحماس في المشاعر. لأن المجتمعات الإسلامية تعاني في عصرنا الحالي من أزمات وتصدعات عميقة خطيرة. ولا يمكنها التخلص من هذه الأزمات، والخروج من هذه الحالة الدرامية المزرية من دون عون الله تعالى. فالمؤمنون بحاجة ماسة وملحة في ليلة المعراج التي سندركها خلال أيام قليلة إلى التضرع والمناجاة قائلين بصدق وبصوت واحد:

﴿... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٤٦)

وليت أننا نستطيع نَقْل هذا التوسل والتضرع، وهذا التسليم الخالص إلى خارج ليلة المعراج. ليت أننا نستطيع أن نحمل هذه المشاعر في قلوبنا وأفئدتنا طيلة أيام العام بل إلى آخر العمر.

إن أهمَّ بُعْدٍ من أبعاد التسليم في المعراج هو الصلاة. ولا يمكن فهم وإدراك حقيقة المعراج إلا عن طريق الصلوات المفروضة والنافلة التي يؤديها الإنسان بحقها. فالمؤمن لا يستطيع المحافظة على ارتقائه المادي والمعنوي إلا عبر الصلاة. والمؤمن من خلال الصلاة يلتقي مع ربه، ويتحدث إليه. والمؤمن من خلال الصلاة ينظم دنياه وآخرته على حد سواء.

ولمولانا جلال الدين الرومي -رحمه الله- كلام مهم بشأن الصلاة، حيث يقول: «قال الذين يظنون أنفسهم عقلاء: إنَّ الغنى إنما يكون بوفرة المال وكثرة الأعراض، إلا أنهم أخطؤوا. فالغنى عند عشاق عبادة الله يُطبع في مطابع الصلاة، والأغنياء من يمتلكون نقود التضرع والمناجاة».

فالثروة والكسب، والكنز الأصلي والحقيقي الذي لا ينفد بالنسبة للمؤمن هو ما يحصله بالصلاة. وأما المكاسب والأموال والأشكال الأخرى من رأس المال فهي مؤقتة وآنية ومحكومٌ عليها بالزوال. وأما ربح رأسمال الصلاة فيمتد إلى الأبدية.

ويقول المرحوم حمدي يازر:

«الصلاة معراج المؤمن. أي أنها السلم الذي يُخرجه من قسوته البشرية ويصعد به إلى عرش الله الواحد الأحد".

أجل؛ إن الصلاة هي السلم الذي يرتقي بالعبد، ويصعد به ويوصله إلى الله تعالى. والمؤمن يحقق عن طريق مصعد الصلاة ارتقاءه المادي والمعنوي معاً. ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه بها خطيئة». (ابن ماجة: ١٤٢٣)

والصلاة مفتاح العون المادي والمعنوي. فقد ورد في القرآن الكريم:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣)

في النظام الكوني قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، تُسمى بـ "سنن الله". ويخضع الجميع لهذه القوانين والسنن دون استثناء، مثل: سنة الموت، والحياة، وحوادث الطبيعة. ووضع الله تعالى قانوناً خاصاً للمؤمنين. وأبرز مثال على ذلك هو "الاستعانة بالصبر والصلاة" التي ذكرت في الآيات الواردة في الأعلى. فمن دون الصبر والصلاة لا يأتي العون والتأييد الإلهي. ولكون المؤمنين يعرفون هذه الحقيقة فإنهم لم يتخلوا عن الصلاة حتى في أصعب الظروف، ولم يتوانوا عن إقامة الصلاة حتى أثناء الحروب واشتداد المعارك، وطلبوا العون من الله تعالى بالصبر والصلاة. إن الصبر والصلاة كلاهما لوجه الله تعالى ولنيل رضاه، ولا ينتج عن الأمرين إلا الخير. فالله ﷻ لا يترك عباده الذين أحبهم دون عون ومدد. ولهذا فإن أهم قاعدة من قواعد حصول العون من الله تعالى هي الصلاة، والصبر الذي يكتسبه العبد من الصلاة.

إن الصلاة عامل مهم في تهذيب الروح وضبط النفس، وتنظيم البدن، وتحصيل الصبر، واكتساب الوقار، وبلوغ الرشد والنضج فيما يتعلق بشؤون الدنيا والآخرة على حدٍّ سواء. الصلاة هي الأمر الذي

> إن المعراج ليس محدوداً بالصلاة، وإنما يمكن شهود المعراج في كل زمان ومكان. وينبغي أن يكون المعراج بالنسبة للمؤمن مطلباً، وشوقاً، وهدفاً، ومحبة. فالمعراج سجود، وإحرام، وطواف، ودعاء، واعتكاف، ومعية إلهية، وقراءة للفاتحة، وخلوة، وتوحيد إلهي، ورؤية للحق بالبصيرة، وإحساس بسرور وانشراح قلبي منقطع النظير لآيات القرآن، ووصول إلى حالة الرضا. المعراج ترك لكل شيء واختلاء بالمحبوب.

يتضمن كلَّ الخصال الكاملة والمزايا الحميدة سواء على الصعيد الفردي والشخصي أو على الصعيد الاجتماعي، وهي العامل الأول والأساسي المحدِّد لمؤسسات وتشكيلات الأمة. ولكون الصلاة عبادةً تشتمل على الذكر والشكر فهي أقرب وأقصر وأولى طريق لتحصيل العون الإلهي.

من الواجب على الإنسان المخلوق الضعيف، الفاني، العاجز، المحدود الإمكانات والطاقاتِ الالتجاءُ إلى القوة الإلهية العظيمة الأبدية والتمسك بها. فالإنسان الذي يقف وجهاً لوجه أمام مختلف أشكال الصعوبات والمشقات مجبر على طلب العون والمدد من الله تعالى صاحب القدرة والقوة المطلقة. والصلاة هي أهم رابطة بين الإنسان الفاني وبين الله تعالى الباقي. وإن أعظم كسب سوف نحصله في ليلة المعراج التي سندركها في الأيام المقبلة هي أن نجعل هدفنا فيها فهم وإدراك سمو الصلاة، وتحقيق انبعاثة جديدة لروحنا من خلالها، والارتقاء بحياتنا المادية والمعنوية. فكلما ازداد عمق تفكرنا بمبدأ "الصلاة معراج المؤمن"، وكلما ازداد سعينا وجهدنا لإتمام عروجنا من خلالها، كلما ازداد فهمنا للمعراج أكثر. فإذا ما أجرينا مراجعة لصلواتنا، وبذلنا المزيد من الجهد لأدائها بخشوع وطمأنينة ومراعاة أركانها وآدابها أكثر فإننا نكون قد أدركنا هوية المعراج الحقيقية.

ومن الحكم من هذه الليلة المباركة، تعريفنا بجوهر الدين الإسلامي. فالخالق الرحيم سوف يمنح جنته لمن يخدمه ويكن له المحبة. فكلما قدم العبد من تضحيات فإن الله تعالى يشرفه بالقرب من ذاته أكثر، وبجنته. وكلما ازداد صبره على المصائب والآلام وتحمله لها، كلما ازدادت المكافأة الإلهية. وكلما زاد من جهاده وبذل جهوداً أكبر كلما كان الإحسان الإلهي أكبر. وكلما زاد حسن سلوكنا كلما شرفنا الجميل المطلق بجمال سكينته.

قِبلة القلب

لا ضرر للدنيا حين يكون القلب مع الله ﷻ، لكن ما أشدَّ ضرر العبادة الصغيرة التي يؤديها العبد بقلب جعلته هموم الدنيا في غفلة، لذلك لا بد أن تكون قِبلة القلب في الصلاة الله تعالى، كما أن قبلةَ الجسم الكعبةُ، والحادثة التالية من حوادث التاريخ المشهورة:

إذ مرَّ مجنون ليلى ذات مرة أمام رجل يصلي، فقطع الرجل صلاته وصاح:

– ألا تعرف أنه لا يجوز المرور أمام المصلي؟.

فقال مجنون ليلى:

–إنني ما رأيتكَ، لحبِّي لليلى، فكيف رأيتني وأنت واقف أمام ربك الذي تحبُّه؟.

الصلاة: مقياس الإنسان

يقول أبو العالية رحمه الله وهو من كبار أئمة التابعين: «كنا نأتي الرجل لنأخذ عنه، فننظر إذا صلى، فإن أحسنها جلسنا إليه، وقلنا: هو لغيرها أحسن. وإن أساءها قمنا عنه، وقلنا: هو لغيرها أسوأ». [الدرامي، المقدمة، ٣٨/ ٤٣٧]

الصلاة المقبولة

إن الصلاة المقبولة إنما هي الصلاة التي تنهى الإنسان عن الفحشاء كما جاء في الآية الكريمة، فإن أردنا أن نعلم إذا ما كانت صلوات الفروض والسنن التي نصليها مقبولة أم لا، فحسبنا أن ننظر إلى بُعدِنا عن الذنوب والآثام في حياتنا.

عبد العزيز بانسي

الزهد و الورع

مفهوم الزهد لغة واصطلاحا:

معنى الزَّهَدُ: الزكاة؛ لأنها قدر قليل من المال وفعله زَهِد: حيث يقال: خذ زَهْدَ ما يكفيك: أي قدر ما يكفيك.. ويقال زهِدَ عن الشَّيء، وزهِدَ في الشَّيء: أعرض عنه وتركه مخافة الحساب أو العقاب، لاحتقاره أو لقلّته أو للتَّحرُّج منه، كما ورد في الحديث:

«**إزهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**» (ابن ماجه)

وزَهِدَ في الدنيا : ترك حلالها مخافةَ حسابِه، وترك حرامها مَخَافة عقابه.

وفي الاصطلاح: للزهد تعريفات عديدة عند العلماء والعارفين، وسنورد جملة من هذه التعريفات:

يقول الإمام الجنيد وصفا للزهد أنه سمع سريا يقول: إن الله ﷻ سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده؛ لأنه لم يرضها لهم. وقال: الزهد في قوله تعالى: " لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور" فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود. وقال: الزاهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

وقال سفيان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ، ولا لبس العباء.

وقال رجل ليحيى بن معاذ: متى أدخل حانوت التوكل ، وألبس رداء الزاهدين، وأقعد معهم؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك إلى حد لو قطع الله الرزق عنك ثلاثة أيام لم تضعف نفسك . فأما ما لم تبلغ إلى هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل، ثم لا آمن عليك أن تفتضح.

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه، الأول ترك الحرام ، وهو زهد العوام . والثاني ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص. والثالث ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين.

وقال ابن القيّم: والذي أجمع عليه العارفون إنّ الزّهد سفر القلب من وطن الدّنيا، وأخذه في منازل الآخرة. وعلى هذا صنّف المتقدّمون كتب الزّهد، كالزّهد لعبد الله بن المبارك، وللإمام أحمد...

وأن متعلّقه ستّة أشياء ولا يستحقّ العبد اسم الزّهد حتّى يزهد فيها: وهي المال، والصّور، والرّياسة، والنّاس، والنّفس، وكلّ ما دون الله.

وليس المراد من الزهد المشروع رفض أخذ النصيب من الدنيا. فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، وكان لهما من المال والملك والنساء ما لهما. وكان سيدنا محمد ﷺ من أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة. وقد قال لثلاثة رهط تقالّوها:

«أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (البخاري، النكاح، ١/ ٥٠٦٣)

وكذلك علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير و عثمان والحسن بن علي ﷺ من الزهاد، مع أنهم كانوا من أكثر الصحابة محبة للنساء ونكاحا لهن وأغناهم. ومن الأئمة عبد الله بن المبارك، والليث بن سعد من أئمة الزهاد، وكان له رأس مال، وكان يقول: "لولا هو لتمندل بنا هؤلاء".

و يقول العلماء بأن أحسن ما قيل في الزهد ، الكلام الذي ينسب إلى الحسن بن علي ﷺ أو إلى غيره.حيث يقول:

"ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك".

والكلمة الأخيرة كما أشار إليه مؤلف "قوت القلوب" هو السبب الذي جعل العارف "سري السقطي" يترك السوق وزهده في الدنيا. وذلك لما بلغه أن الحريق وقع في سوقه فأحرق دكانه، فخرج في قطع من الليل فاستقبله قوم فقالوا: يا أبا الحسن، احترقت دكاكين الناس إلا دكانك فقال: الحمد لله: ثم تفكر في ذلك فقال: قلت الحمد لله في سلامة مالي وهلك أموال إخواني المسلمين، فتصدق بجميع ما كان في دكانه من السقط والآلة كفارة لكلمته هذه، وخرج من السوق فشكر الله له فعله، فزهد في الدنيا ورفعه إلى مقام المحبة فأوصله ترك الرضا. يعني: كلمة الحمد لله؛ لأنها رضا ظهرت منه في موضع الاسترجاع للمصيبة إلى الرضا. حيث قيل إنه قال: فأنا أستغفر الله منه "أي؛ من قوله الحمد لله" ثلاثين سنة. إن كان هذا الأمر يدل على شيئ فإنه يدل على دقة ورقة حساسية العارفين بالله.

آيات الزهد في القرآن:

فالآيات الواردة في منطوق ومعنى الزهد كثيرة، أما الآية التي ورد فيها بلفظ صريح هي آية واحدة، في سورة يوسف الآية ٢٠، يقول فيها ﷻ:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

وقال الطبري في تفسير الأية:

وكان إخوة يوسف في يوسف من الزاهدين، لا يعلمون كرامته على الله، ولا يعرفون منـزلته عنده.

ومن بعض الآيات الواردة في معنى "الزهد":

﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ (طه: ١٣١)

﴿وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ﴾ (الْقَصَصِ: ٥٥)

أما الأحاديث الواردة بلفظ الزهد:

حديث أبي العباس سهل بن سعدٍ الساعدي ﷺ، قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، دلني على عملٍ إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس، فقال:

«إزهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» (ابن ماجه، الزهد/ ٤١٠٢؛ الطبراني، المعجم الكبير/ ٥٩٧٢)

قال الإمام أحمد بن حنبل:
الزهد على ثلاثة أوجه، الأول ترك الحرام ، وهو زهد العوام . والثاني ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص. والثالث ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين.
الزهد في الدنيا قصر الأمل. وفي رواية أخرى قال إنه عدم فرحه بإقبالها، ولا حزنه على إدبارها. فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار، هل يكون زاهدا؟ فقال: نعم على شريطة ألا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت.

وعن أبي هريرة ﷺ قال:قال رسول الله ﷺ:

«إذا أدّى العبد حقّ الله وحقّ مواليه كان له أجران» قال: فحدّثتها كعبا. فقال كعب: «ليس عليه حساب ولا على مؤمن زهد» (مسلم، الأيمان، ٤٥/ ١٦٦٦)

وعن ابن مسعود ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال:

«كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنّها تزهّد في الدّنيا وتذكّر الآخرة» (ابن ماجه، الزهد/ ١٥٧١)

أما الأحاديث الواردة في مضمون "الزهد" كثيرة وسنذكر بعضا منها:

عن أنس ﷺ عن النّبيّ ﷺ قال:

«اللهمّ لا عيش إلاّ عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجره» (البخاري، الرقائق، ١/ ٦٤١٤؛ مسلم، الجهاد، ١٢٧/ ١٨٠٥)

عن عن مطرف بن عبد الله بن الشخير ﷺ، أن أباه حدثه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ألهاكم التكاثر، قال: **«يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك، يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»** (مسلم، الزهد، ٣/ ٢٩٥٨)

ويقول رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي»** (مسلم، الزهد، ١١/ ٢٩٦٥)

مفهوم الورع:

معنى الورع لغةً :(ورع) الواو والراء والعين: أصل صحيح يدل على الكف والانقباض . منه الورع : العفة، وهي الكف عما لا ينبغي. وورعته: كففته، وأورعته. وفي الحديث: «ورع اللص ولا تراعه»، أي بادر إلى كفه. وورعت الإبل عن الماء: رددتها.

ويراد به: التَّقْوَى، والتَّحَرُّج، والكَفُّ عن المحارِم. والورِع، بكسر الرَّاءِ: الرجلُ التَّقِي المتَحَرِّج، وفي الأصل: الكفّ عن المحارم والتّحرّج منها، ثمّ استعير للكفّ عن المباح والحلال وقال الأصمعيّ: الرّعة الهدى وحسن الهيئة. يقال: قوم حسنة رعتهم؛ أي شأنهم وأمرهم وأدبهم وأصله من الورع، وهو الكفّ عن القبيح.

واصطلاحا: قال المُناويّ: قيل في تعريفه : الورع ترك ما يريبك، ونفي ما يعيبك، والأخذ بالأوثق، وحمل النّفس على الأشقّ. وقيل: النّظر في المطعم واللّباس، وترك ما به بأس، وقيل: تجنّب الشّبهات، ومراقبة الخطرات.

وقال الكفويّ:الورع: الاجتناب عن الشّبهات سواء كان تحصيلا أو غير تحصيل؛ إذ قد يفعل المرء فعلا تورّعا، وقد يتركه تورّعا أيضا، ويستعمل بمعنى التّقوى، وهو الكفّ عن المحرّمات القطعيّة.

وقال الرّاغب: الورع عبارة عن ترك التّسرّع إلى تناول أعراض الدّنيا .

وقال ابن القيّم: ترك ما يخشى ضرره في الآخرة.

مراتب الورع ودرجاته

قسّم الرّاغب الأصفهانيّ الورع إلى ثلاث مراتب:

١. واجب: وهو الإحجام عن المحارم، وذلك للنّاس كافّة.

٢. مندوب: وهو الوقوف عن الشّبهات، وذلك للأواسط.

٣. فضيلة: وهو الكفّ عن كثير من المباحات والاقتصار على أقلّ الضّرورات، وذلك للنّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين.

وقال الشّيخ أبو إسماعيل الهرويّ- رحمه الله تعالى-:

الورع على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: تجنّب القبائح لصدق النّفس، وتوفير الحسنات وصيانة الإيمان.

الدّرجة الثّانية: حفظ الحدود عند ما لا بأس به، إبقاء على الصّيانة، والتّقوى، وصعودا عن الدّناءة، وتخلّصا عن اقتحام الحدود.

الدّرجة الثّالثة: التّورّع عن كلّ داعية تدعو إلى شتات الوقت والتّعلّق بالتّفرّق.

ويقول العلماء بأن الآية الأصل في الورع قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون: ٥١)

الأحاديث الواردة في الورع:

عن سعد بن أبي وقاص وحذيفة بن اليمان ﷺ: عن النبي ﷺ قال:

«فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع» (الحاكم، المستدرك، ١، ١٧٠/ ٣١٤)

أما الأحاديث الواردة في معنى الورع؛ منها:

عن الحسن بن علي ﷺ قال: حفظت من رسول الله ﷺ:

«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنَّ الصدق طمأنينة، وإنَّ الكذب ريبة» (الترمذي، صفة القيامة/ ٢٥١٨ أحمد، مسند، ٣، ٢٤٨/ ١٧٢٣)

وعن النعمان بن بشير ﷺ: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات: كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»** (البخاري، الإيمان، ٥٢؛ ابن ماجة، الفتن/ ٣٩٨٤)

أقوال السلف والعلماء في الورع:

- قال أبو الدرداء:

«تمام التقوى أن يتقي اللهَ العبدُ، حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال، خشية أن يكون حرامًا، حجابًا بينه وبين الحرام».

- وقال الحسن:

«مازالت التقوى بالمتقين؛ حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام».

- وقال الثوري:

«إنما سموا المتقين؛ لأنهم اتقوا ما لا يُتَّقى».

-ورُوي عن ابن عمر ﷺ قال:

«إني لأحبُّ أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها».

- وقال سفيان بن عيينة:

«لا يصيب عبد حقيقة الإيمان؛ حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه».

الفرق بين الزهد والورع:

يقول د. يوسف القرضاوي في كتابه "الطريق إلى الله":

«الورع والزهد، كما يظهر لنا جليا في ترتيب تسمية مصطلحي الكتاب، من حيث قدّم الورع على الزهد، لأن الورع سابق على الزهد؛ الورع يمثّل التخلية، والزهد يمثّل التحلية، والتخلية مقدّمة على التحلية. وسبب هذا التقديم والتأخير مستفادة من تعريفات العلماء للمصطلحين. ومن أمثلة ذلك:

ما رواه ابن الأعرابي في كتابه " الزهد وصفة الزاهدين" عن أبي سليمان الداراني أنه قال:

القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد، وقال: أول الرضا القناعة، وهو أول الزهد، يعني الورع. مما يدل إلى أن الزهد أبلغ من الورع، وأنه داخل في ضمن الزهد، فكل زاهد ورع، وليس كل ورع زاهدًا».

ونقل ابن القيم في "مدارج السالكين" عن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمهما الله تعالى- قولا عن الفرق بين الزهد والورع. فقال:

«الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة»،

وعلق عليه قائلا:

«وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها»

وقد يقال: إن الزهد بالنسبة لما حصل في يدك، والورع قبل أن تملكه وقبل أن يحصل في يدك، فتتورع عن ملك الشيء، ثم إذا حصل في يدك بعد أن جزمت بحله وأنه ليس فيه أدنى شبهة فإنك تزهد فيه، وتخرجه فيما يرضي الله -جل وعلا-.

حاصل القول فيما مضى، هو أنه ثمة التداخل بين الورع والزهد في باب الترك والإيجاب في الأصل، إذ الورع في الأصل هو ترك ما حرّم الله، أو ترك ما نهى الله عنه. وكذلك الزهد فهو كذلك تركٌ لأن حقيقته الاعتراض عن متاع الدنيا وزخارفها، وترك كل ما يشغل عن الله سبحانه.

عندما يكون الإنفاق في سبيل اللّه

من دروس

الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو

قال الله ﷻ:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

"من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل" (البخاري: ١٤١٠)

ينقسم الناس في مسألة الإنفاق والتصدق إلى ثلاثة أصناف: القوي، والمتوسط، والضعيف.

فأما الأقوياء فهم الصادقون في وعدهم بالمحبة التي قطعوها لله تعالى ومن ثم قادرون على التصدق بكامل أموالهم وممتلكاهم دفعة واحدة. وسيد هؤلاء هو أبو بكر الصديق ﷺ.

وأما متوسطو القوة فهم غير القادرين على التخلي عن أموالهم دفعة واحدة، وإنما يوفقون بإخراج جزء من هذه الأموال للمحتاجين الذين يشاهدونهم، ويحتفظون بالجزء الباقي بنية الاستقواء على أداء العبادات، وليس مجرد الاستفادة منه.

أما الصنف الثالث فهم الضعفاء الذين يكتفون بإخراج الزكاة المفروضة فقط.

نسأل الله تعالى متضرعين أن يقوي إيماننا وأخلاقنا، ويخلصنا من أسر أنفسنا، ويجعلنا من المخلصين القانعين بالله، ولا يرجون شيئاً من غيره.

واعلم أن طالب الحق ورضاه ينال بإخلاصه ضعف ما يناله الذي ينفق ويفعل الخير والطاعات لنيل الثواب والأجر الأخروي والارتقاء في درجات الجنة. حيث أن حظ المنفق من أجل الثواب إنما سيكون نعيم الجنة. بينما حظ المخلص في طلب الحق هو القرب من الحق، ونيل نعمة الوصل معه، ورؤية ما لم تره عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر. وهو حظ أكبر بأضعاف مضاعفة من نصيب الذي يطلب الجنة ونعيمها.

يروى في المأثور: ستة أشياء حسنة ولكن في ستة من الناس أحسن. وهذه الأشياء هي العلم، والعدل، والسخاء، والتوبة، والصبر، والحياء. فالعلم حسن ولكن في العاملين أحسن، والعدل حسن ولكن في الأمراء أحسن، والسخاء حسن ولكن من الأغنياء أحسن، والتوبة حسن ولكن في الشباب أحسن، والصبر حسن ولكن في الفقراء أحسن، والحياء حسن ولكن في النساء أحسن.

فالعلم من غير عمل كدار بلاسقف، والأمير غير العادل مثل البئر الجاف الذي لا ماء فيه، والغني غير السخي مثل الغيمة غير الماطرة، والشاب من غير التوبة مثل الشجرة غير المثمرة، والفقير غير الصابر مثل السراج المنطفئ، والمرأة التي لا حياء كالطعام دون ملح. وبناء على ذلك ينبغي على الغني أن يمطر من غيوم غناه بركات الدين والدنيا ليحيي بها القلوب الميتة من الفقر والحاجة.

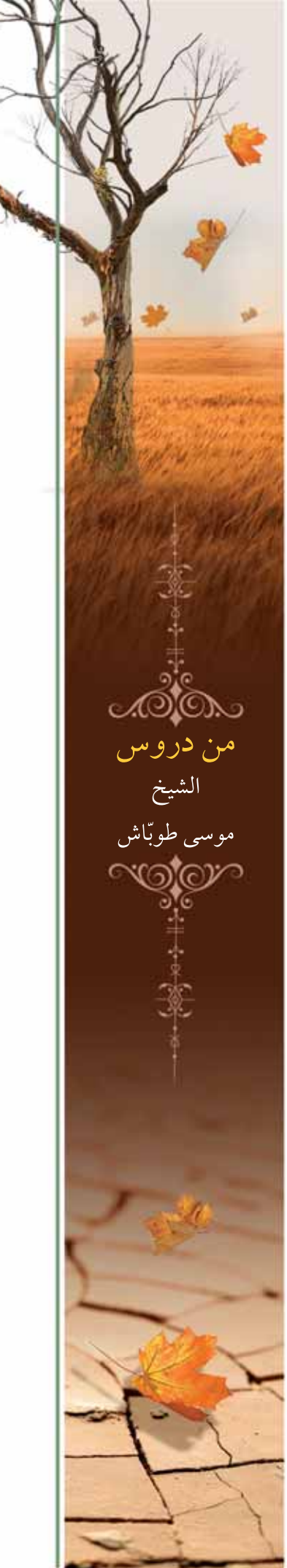

من دروس
الشيخ
موسى طوبّاش

السخاء طريق الخلاص من أسر الدنيا

قال الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (فاطر: ٥)

وقال رسول الله ﷺ: "**الدنيا ساعة**" (حلية الأولياء، ٢، ٣٢٠)

فاحرصوا على أن تقضوا تلك الساعة، أي العمر القصير في هذه الدنيا بالعبادة والعبودية. ومن طرق اقتلاع محبة الدنيا من القلب والتخلص من أسرها السخاء. فالأسخياء يؤدون حساب الأموال التي كسبوها وهم في هذه الدنيا، ومن ثم فإنهم لا يواجهون مصاعب بشأنها في الآخرة. فالسخاء صفة تأخذ بصاحبها إلى الجنة، بينما البخل صفة تجر صاحبها إلى النار.

قال رسول الله: "إن الإيمان إذا دخل القلب انفسح له القلب وانشرح" قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك من آية يعرف بها؟ قال النبي عليه الصلاة والسلام: "**نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت**" (ابن كثير: تفسير، ٣، ٣٠٠)

وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن الله أرسل الكثير من الأنبياء والرسل، وأوتي هؤلاء من أموال الدنيا. إلا أنهم لم يحتفظوا بها لأنفسهم، ولم يركنوا ملذات الدنيا ومباهجها، وإنما عمدوا إلى هذه الأموال والنعم فأنفقوها لوجه الله تعالى. وأكلوا هم الشعير ولبسوا الرداء.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا ما جاءته أموال الغنائم وزعها على الفقراء والمحتاجين ولم يبقي منها لنفسه شيئاً، وكانت تمضي عليه الأيام لا يتناول فيها حتى خبز الشعير.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٥-١٦)

بعد أن علمنا ما قالته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والصحابة الكرام، والأولياء من أهل الله عن الدنيا علينا العمل جهد استطاعتنا على إخراج حب الدنيا من قلوبنا.

ومن المشروع بل والمندوب الانشغال بالإعمال الدنيوية، وكسب الرزق للاستغناء عن السؤال والاستقواء على العبادة، وتحقيق الفائدة للإسلام، ولكن ضمن أوامر ونواهي الله عز وجل دون الانجرار إلى الدنيا وتعليق القلب بها.

والسبيل الوحيد لذلك هو التأمل في حالنا وعاقبتنا، والاحتياط لمستقبلنا.

علينا أن نتأمل ونفكر ملياً، فالله جل وعلا أرسلنا إلى هذه الدنيا مسلمين بواسطة آباء وأمهات مسلمين، وقوى من إيماننا واعتقادنا، وزيننا بما يلزمنا من العلوم والمعارف. جعلنا عباداً له، وأفراداً من أمة نبيه الكريم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. فمهما حمدناه وشكرناه على هذه النعم يبقى قليلاً ولا نوفيه حقه. وأعطى للبعض منا نصيباً على طريق معرفة الله. فمهما توجهنا بالشكر والحمد لربنا عز وجل علينا الاعتراف والاستغفار من أننا ما زلنا مقصرين في أداء العبودية بما يلق به.

عثمان نوري طوباش

الأسوة الحسنة

نحن بحاجة اليوم إلى المؤمنين من أهل القلب

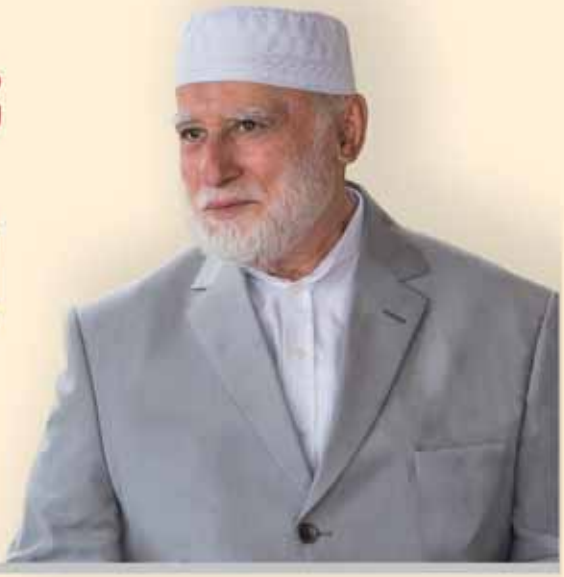

هناك الكثير من أوجه العون التي قدمها الحق ﷻ لإخراج بني آدم من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الهداية. وجعل الكون مدرسة تُعرض فيها القدرة والعظمة الإلهية. وأنزل من لدنه الكتب الإلهية التي من شأنها أن تدرس في مكتبة الكون هذه. وأرسل الأنبياء والرسل معلمين ومدرسين في هذه المدرسة.

يُعد الأنبياء والرسل أعظم المربين للبشر. فهم شخصيات نموذجية ومُثل مكلفون بالإثبات الفعلي والمشاهد لكيفية تطبيق الأحكام الإلهية في الحياة.

فالناس يُعجبون ويفتنون بالشخصية والصفات المتميزة. فحتى المشركون قالوا عن رسول الله ﷺ الذي نشأ وترعرع برعاية التربية الإلهية "**الصادق الأمين**" ، واعتمدوا عليه، ووثقوا به أيما ثقة لحين بلوغه الأربعين عاماً من عمره. ولما أوكل الله ﷻ مهمة النبوة إلى رسول الله ﷺ فإنه أول ما فعله أن قام بحمل المشركين على الإقرار بشخصيته وصفاته المميزة. حيث نادى على قومه سائلاً:

«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟»

قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، وبعد أن انتزع الرسول ﷺ من قومه إقرارهم بصدقه بدأ بتبليغهم الحقائق الإلهية. (البخاري، التفسير، ٢٦/ ٤٧٧٠؛ مسلم، الإيمان، ٣٥٥)

حتى أن زعيم المشركين أبو جهل وأصحابه كانوا مقرين بصدق رسول الله ﷺ. حيث قالوا له عليه الصلاة والسلام ذات يوم:

"يا محمد؛ إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به"

وبذلك فإنهم رفضوا وأنكروا حقيقةً أقرت بها ضمائرهم اتباعاً لأهواء أنفسهم. فأنزل الله ﷻ:

﴿...فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣؛ الترمذي، التفسير، ٦/ ٣٠٦٤)

فأعداء النبي ﷺ كانوا يسلمون بسوية شخصيته، واستقامته، وأمانته، وصدقه، وأنه يستحيل أن يأتي بخبر كذب.

إذاً إن المسلم يكون في المجتمع الذي يعيش فيه مثال الصدق، والعدالة، والأمانة. يقدم شخصية نموذجية ومثالية. وتطابق أفعاله أقواله.

ومن جهة أخرى كان النبي عليه الصلاة والسلام يطبق الأوامر والنواهي التي يتلقاها من الله تعالى على نفسه بحرص ودقة شديدة، ثم يبلغ ما نفذه بذاته لأمته. لذا كان النبي ﷺ بحياته المستقيمة قرآناً حياً يمشي على الأرض؛ وتفسيراً فعلياً للقرآن الكريم بأخلاقه الحميدة.

لقد قلنا أن الناس يُعجبون ويفتنون بالشخصية. حيث أن الكثير من المسلمين في عصر السعادة كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة. وحتى الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة أدركوا حقيقة الإسلام وصدقية هذا الدين وتشرفوا بالهداية، وتعلموا أحكام القرآن الكريم وأخلاقه من خلال رؤيتها متجسدة في شخص النبي وأصحابه. لذا فإن تجسيد الإسلام وتقديمه في شخصية حية أمر بالغ الأهمية.

كما وإن هذا المنهج يُعد من أكثر أشكال التبليغ تأثيراً وفعالية. أي أن تبليغ الحقائق الإلهية عن طريق أمثلة حية مشخصة يؤدي إلى نتائج أكثر إيجابية وبركة من الطريقة التي تكتفي بالتبليغ القولي. وذلك لأنه في غالب الأحيان يصعب على فكر الإنسان استيعاب وفهم الحقائق المجردة. ولكن عندما يرى الإنسان هذه الحقائق متجسدة في شخصيات وحوادث ظاهرة مرئية يسهل عليه إدراكها.

ولهذا قال مولانا جلال الدين الرومي:

"الواعظ بالحال خير من الواعظ بالقال".

ومن جانب آخر فإن ما جعل الإسلام ذا رؤية عالمية حقيقية وراسخة ومتألقة هو إثبات قابليته للتطبيق والتنفيذ في الحياة وعلى أرض الواقع بالأمثلة والنماذج المشخصة الحية. أي كونه يمتلك "معايير فعلية". وأما النظريات والفلسفات البشرية المحرومة من هذه الخاصية فقد حكم عليها بالتفسخ والاضمحلال على رفوف المكتبات المغبرة، ولم تفلح يوماً في تحقيق السعادة والطمأنينة للبشرية.

يقول الله ﷻ في كتابه الكريم:

﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾ (النجم: ٢-٤)

أي أن التعاليم الواردة في الأحاديث النبوية الشريفة هي من الله تعالى وإن كانت ألفاظها من رسول الله عليه الصلاة والسلام.

يُعد النبي ﷺ أحد بدائع خلق القدرة الإلهية، وخوارق صنعتها التي تجلت في البشرية. فقد قدم الحق ﷻ نموذج "الإنسان الكامل" الذي أراده بالإسلام في شخصه عليه الصلاة والسلام. جاء في الآية القرآنية:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥)

لذا لا يمكننا دون فهم الرسول الأكرم ﷺ، والغوص في عوالم قلبه، واتخاذ سنته السنية دستوراً لحياتنا لا

فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً، ولا الوصول إلى الأسرار والحكم الإلهية المتناثرة في هذا الكون، ولا تقديم شخصية إسلامية موزونة ومقبولة.

وقد جاء في آية قرآنية أخرى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣)

إذاً؛ دعوة الناس إلى الله تعالى تتطلب أولاً تطبيق الإسلام والسير على التقوى، ثم بعد ذلك القيام بتبليغ هذه الحقائق والأحكام التي تم تنفيذها وتجسيدها على أرض الواقع. وينبغي أن تتجلى أخلاق الإسلام في شخصنا وحياتنا. فمثل هؤلاء يمتدحهم الله تعالى ويثني عليهم...

لقد تجلت صفة **"الأسوة الحسنة"** التي تمتع بها النبي ﷺ في العبادات،والمعاملات، والأخلاق، والمعاشرة، وباختصار تجلت في كافة ميادين الحياة. إذ أن الإسلام كل متكامل ينظم كافة مجالات الحياة دون أن يدع أي فراغ أو مجالاً مهما كان صغيراً أو ثانوياً. ونورد فيما يلي بعض الأمثلة على صفة الأسوة الحسنة لرسول الله ﷺ:

الرسول عليه الصلاة والسلام أفضل أسوة حسنة في الروحانية في العبادات:

فصلاة رسول الله ﷺ كانت دائماً حالة من المعراج، أي كانت حالة وصل لا توصف مع الحق سبحانه وتعالى. فكما أن قبلة بدنه في الصلاة كانت الكعبة، فإن قبلة قلبه كان رب الكعبة سبحانه وتعالى.

وأمر رسول الله ﷺ أن يدع المصلي في صلاته كافة المشاغل والأفكار الدنيوية، ويتوجه بقبله وكيانه كله للحق ﷻ وحده دون غيره؛ وذلك حين قال لمن سأله عن كيفية الصلاة:

"إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع...."

(ابن ماجه، الزهد، ١٥/ ٤١٧١)

وكذلك قال رسول الله ﷺ عن الناحية القلبية للصلاة:

"الصلاة مثنى مثنى، تشهد في كل ركعتين، وتخشع، وتضرع، وتمسكن،..." (الترمذي، الصلاة، ١٦٦)

ويتحدث عبد الله مطرف عن خشوع النبي ﷺ في الصلاة ناقلاً عن أبيه، فيصور لنا المشهد الآتي:

"أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل" (أبو داوود، الصلاة، ١٥٦-١٥٧/ ٩٠٤؛ أحمد، ٤، ٢٥، ٢٦)

وذات مرة قام النبي ﷺ الليل فأطال الصلاة حتى تورمت قدماه، وتبللت لحيته وحجره ومكان سجود بدموعه المباركة. ولما قيل له: يا رسول الله، أتفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم وما تأخر؟ قال:

"أفلا أكون عبداً شكوراً" (انظر: ابن حبان، ٢، ٣٨٦)

إذاً؛ عندما يقول رسول الله ﷺ صلوا كما رأيتموني أصلي... فإنه يأمرنا نحن أمته أن نكون في صلاتنا بحالة تناغم وانسجام تام بين القلب والبدن وكأننا بحالة معراج. ويوجهنا أن نلتزم بهذه العناية التي أبداها بالصلاة في كافة نواحي حياتنا التي هي عبارة عن عبادة بكليتها.

النبي عليه الصلاة والسلام أفضل أسوة حسنة في الرفق في ميدان الأخلاق:

جاء أعرابي كان قد أسلم حديثاً إلى النبي ﷺ وهو في مسجده، فقضى حاجته في زاوية من المسجد. فقام إليه الصحابة وزجروه، فقال رسول الله ﷺ:

"دعوه وهريقوا على بوله سجلاً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين" (البخاري، الوضوء، ٥٨، الأدب، ٨٠)

ثم بعد أن قضى الرجل حاجته أخذ النبي ﷺ يعلمه آداب المسجد وأهميته بأسلوب رقيق لطيف.

ولم يكن كره النبي ﷺ للسيئة والذنوب يتعدى إلى المذنب. وإنما كان يتعامل مع المذنب تعامله مع الطائر الجريح المحتاج إلى المعالجة والمداواة بمنتهى الشفقة والرحمة.

النبي عليه الصلاة والسلام أفضل أسوة حسنة في التأني والصبر والتحمل في المعاملات:

لم يكن النبي ﷺ حسن المعشر في التعامل مع غير المسلمين والمنافقين فحسب، وإنما كان يتصرف بمنتهى التأني والصبر مع فظاظة حديثي الدخول إلى الإسلام الذين لم يدركوا بعد جوهر الإسلام ومحاسنه وجماله. فقد جاءه أعرابي من الصحراء وناداه بأسلوب فظ قائلاً: يا محمد، يا محمد!. وأخذ يكرر نداءه الفج هذا مرات عديدة. ورغم ذلك كان النبي ﷺ يرد عليه في كل مرة ويسأله عن حاجته بلطف. أي أن النبي ﷺ لم يكن يتخلى عن تؤدته وحسن تعامله مهما كان الإنسان الذي يخاطبه فظاً وغليظاً.

إذ ورد في حديث نبوي شريف وصف لين جانب الإسلام بالصورة الآتية: "**مثل المؤمن كمثل النحلة لا يأكل إلا طيبا ولا يضع إلا طيبا**" (البيهقي، الشعب، ٥، ٥٨/ ٥٣٨١)

والتربية الصوفية تستوجب هذا. حيث أن الدرس الأول في التصوف هو تجنب الإساءة والأذى، والدرس الأخير هو عدم التأثر بالأذى والإساءة. أي الوصول إلى فضيلة العفو عن عباد الله تعالى من أجل استحقاق العفو الإلهي. قال رسول ﷺ:

"...**لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد...**" (الترمذي، القيامة، ٣٤/ ٢٤٧٢)

إلا أنه ورغم كل ألوان الأذى التي تعرض لها ظل متجملاً بذروة الحمد، والشكر، والرضا، والصبر، والتحمل، والتوكل، والتسليم، ولم يفقد طمأنينته وسكينته قط.

ولهذا نجح الرسول الأكرم ﷺ الذي تحمل مختلف أشكال الأذى في سبيل الله، ووفق في دعوته، ولم يفكر أبداً في الانسحاب والتخلص من أذى الناس حتى في أوج قوة المسلمين والانتصارات التي حققوها بكرم الله تعالى وإحسانه. فذات يوم بينما كان رسول الله ﷺ يجلس على مائدة طعام بين جماعة من أصحابه جاثياً على ركبته لكثرتهم رآه أعرابي فقال مستغرباً ومعبراً عن إعجابه ودهشته بأدب رسول الله الرفيع وحسن معاشرته: ما هذه الجلسة؟ فرد عليه النبي ﷺ بقوله:

"**إن الله جعلني عبداً كريماً، ولم يجعلني جباراً عنيداً**"

(أبو داوود: الأطعمة، ١٧/ ٣٧٧٣)

أي أن النبي ﷺ بين له بذلك أنه لن يتصرف تصرف المغرورين والمتكبرين أبداً.

وأشار ﷺ الذي كان مثلاً أعلى في خفض الجانب والتواضع، وحسن المعشر إلى أن الصفات المذمومة مثل العناد، والتجبر، والظلم، والغرور، والكبر لا تليق بشخصية المؤمن أبداً.

وكان عم النبي ﷺ العباس رضي الله عنه يتألم ويحزن كثيراً لما يراه مما يتعرض له ابن أخيه من الأذى والإساءة على أيدي الناس الذين يدعوهم إلى الهداية وطريق الرشاد. ولهذا فإنه كان يريد أن يجلس ابن أخيه فخر الكائنات على عرش رغبة منه في أن يخلصه ولو من بعض ما يعانيه من المشاق والأذى. إلا أن الرسول ﷺ قال:

"**والله لا أزال بين ظهرانيهم ينازعوني ردائي ويصيبني غبارهم حتى يكون الله يريحني منهم!**"

(ابن سعد، ٢، ١٩٣؛ الهيثمي، ٩، ٢١.)

إذاً؛ على المؤمن أن يكون ظريفاً حسن المعشر لين الجانب في كل أحواله. أن ينشر التواضع والطمأنينة في كل مكان يحل فيه مثله كمثل الوردة العطرة التي تفوح منها الرائحة الطيبة.

يقول مولانا جلال الدين الرومي في معرض بيانه أن التبليغ والإرشاد الذي هو أهم مهام الأنبياء والرسل إنما هو أعظم مهام الصبر:

"أغلب البلايا والمصائب تنزل بالأنبياء. لأن تقويم الناس وتهذيبهم وإرشادهم إلى الطريق بلاء بحد ذاته".

إلا أن مولانا يقول في معرض بيان الكمال الذي يكسبه تحمل البلايا والمصائب بصبر للإنسان الصابر:

"تحمل الزهرة للأشواك أكسبها طيب الرائحة".

النبي ﷺ أفضل أسوة حسنة في اللباقة واللطف:

لم يكن الرسول ﷺ فجاً ولا فظاً في التعامل مع الأخطاء والهفوات التي تصدر من المؤمنين. فلم يكن من شأنه توبيخهم، أو تأنيبهم بصورة مباشرة، وإنما كان يستخدم عبارات تعبر بصورة غير مباشرة ولبقة إلى تلك الأخطاء وعدم رضاه عنها، فيقول مثلاً:

"ما لي أراكم! ما بال أقوام!".

يقول أنس ﷺ متحدثاً عن التربية المحفوفة بالمحبة التي كان يتلقاها من رسول الله ﷺ:

"ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحاً قط أو عرفاً قط أطيب من ريح أو عرف النبي ﷺ.....خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أفاً قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟"

(البخاري، الصوم، ٥٣؛ مسلم، الفضائل، ٨٢)

وقال الله ﷻ عنه:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

النبي ﷺ أفضل أسوة حسنة في النور الذي في سيماه:

إن سيرة الإنسان تنعكس في صورته. وحالة الإنسان الروحية تتضح من سيماه.

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ذهب إليه عبد الله بن سلام وهو من علماء اليهود لما كان لديه من فضول لرؤيته. ولما جاء إلى النبي ﷺ ونظر إلى وجهه قال: إن هذا الوجه ليس بوجه كذاب، ثم أسلم. (الترمذي، القيامة، ٤٢/ ٢٤٨٥؛ أحمد، ٥، ٤٥١)

وعندما يذكر الله تعالى صفات المؤمنين الأخيار الذي تشرفوا بصحبة خير خلق الله رسول الله ﷺ يقول:

﴿... سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ...﴾ (الفتح: ٢٩)

الرسول ﷺ أفضل أسوة حسنة في طلاقة اللسان:

كان رسول الله ﷺ سلس الكلام، طليق اللسان، فصيح العبارة، بليغ البيان لا يجاريه في ذلك أبلغ وأفصح العرب. فحديثه كان حلواً عذباً يأخذ بمجامع القلوب، وكلماته كانت معبرة عما يريد دون إطالة أو تقصير. كان يتكلم بتؤدة بحيث يفهمه السامع ويدرك مراميه بكل يسر. فلم يكن سريع الحديث. وباختصار كان أفصح الناس، وأبينهم لمراده، وأحسنهم منطقاً وإيجازاً وحكمة في الحديث. وعن أبي قرصافة قال:

"ذهبت أنا وأمي وخالتي فأسلمنا وبايعنا رسول الله. ولما وبايعنا ورجعنا من عنده منصرفين قالت لي أمي وخالتي: يا بني! ما رأينا مثل هذا الرجل، ولا أحسن منه وجهاً، ولا أنقى ثوباً، ولا ألين كلاماً! ورأينا كأن النور يخرج من فيه". (الهيثمي، ٨، ٢٧٩-٢٨٠)

والحاصل؛ على المؤمن المتخلق بالأخلاق النبوية أن يدغدغ أرواح الناس ويؤجج مشاعرهم بجماله وطيب رائحة مثل الزهرة المتوردة طيبة الرائحة. فينبغي أن يكون كلامه مؤلفاً من عبارات براقة تشكل غذاء للروح. وأن لا تفارق الابتسامة محياه، ولا الرحمة والشفقة لسانه وقلبه النقي.

وهناك حقيقة أخرى حول مسألة صفة القدوة/ الأسوة التي يتصف بها رسول الله ﷺ، وهي أن الإنسان العادي ربما لا يستطيع أن يكون قدوة إلا لمن هم في منزلته وحالته الاجتماعية. لذا فإن الحق ﷻ كتب للنبي ﷺ أن يمر بكافة أحوال ومراحل ومراتب الحياة الدنيوية من اليتم ورعي الغنم والفقر إلى قيادة المجتمع ورئاسة الدولة كي يكون قدوة لكل إنسان. وبذلك فإنه يُعد قدوة حسنة لكل فرد من أفراد المجتمع مهما علا شأنه أو نزل حتى قيام الساعة.

فلا يستطيع أحد القول: "لا مثيل لما تعرضت له من أشكال الصعاب والمشاق والأذى الجسام لا لدى رسول الله، ولا في الكتاب الذي جاء به، وفي المجتمع الإسلامي الذي أنشأه". حيث أن نظام الحياة الذي جاء به النبي ﷺ تام ومتكامل وقادر على الإجابة على مسألة وقضية من القضايا التي يمكن أن تواجهها الإنسانية حتى يوم القيامة.

عمل النبي ﷺ بدوره على تنشئة وتربية أصحاب الصفّة الذي سيتولون مهمة تبليغ الدعوة للناس، وإرشاد الأمة من بعده. وأرسلهم إلى بلدان بعيدة، فكانوا ممثلين لرسول الله في تلك البلاد التي ذهبوا إليها. وتتلمذ الصحابة الكرام على يد رسول الله ﷺ فتعلموا منه العلوم، وحصلوا إلى جانب ذلك على نصيب من حاله، وأخلاقه، وإخلاصه، وتقواه. فأدركوا ما لديه من وجد العبودية، وحماس وجهد التبليغ، ومشاعر التقوى بالعين المجردة والإحساس المباشر. وينبغي اليوم تزويد طلبة العلوم الإسلامية بتلك الحال، والمحبة، والتقوى إلى جانب ما يحصلونه من العلوم.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...﴾ (آل عمران: ١١٠)

إذاً؛ يعمل المؤمن قبل كل شيء على إحياء نفسه ظاهراً وباطناً، ثم يقوم بالتبليغ بهذا المقام. فإن لم يفعل ذلك ، أي إذا لم يطبق ما يقوله على نفسه، وألقى بخطابات جوفاء غير نابعة من القلب وصادقة فإنه لن يحدث أي تأثير إيجابي أبداً. وقد شبه الله تعالى في سورة الجمعة مثل هؤلاء، أي الذين لا يكونون قدوة ومثلاً بأفعالهم وتصرفاتهم بالحمار الذي يحمل على ظهره أسفاراً. ويحذر تعالى من مثل هذا السلوك فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ...﴾ (الصف: ٢-٣)

فمن البديهي أن مثل هؤلاء الغافلين الذي لا تختلف أفعالهم عن أقوالهم، ولا يتطابق جوهرهم مع مظهرهم لن يفلحوا في إيقاظ الآخرين من غفلتهم. إذ كيف لنائم أن يوقظ غيره؟!. والأنبياء شخصيات نموذجية أرسلت لإيقاظ الناس من غفلتها.

بعد ارتحال رسول الله ﷺ إلى الحياة الأبدية حمل لواء الإسلام الصحابة الكرام، والتابعون، وتابع التابعين، ومن بعدهم أجدادنا العثمانيون حتى وصلوا به إلى قارات العالم كلها. وقد فتح العلماء العاملون، والعارفون، والأولياء الصالحون القلوب قبل البلاد. وأصبحوا مظهراً للعون والمدد الإلهي بقدر نجاحهم في الاتصاف بصفة الأسوة الحسنة التي كان يتصف بها رسول الله ﷺ وتبليغها للناس. وبذلك صاروا وسيلة للهداية والفتوحات المادية والمعنوية على حد سواء.

فعندما فتح السلطان محمد الفاتح البوسنة جاء بأناس أطهار من الأناضول وأسكنهم في هذه المنطقة. فأعجب البوشناق بحياة هؤلاء وأفعالهم السامية فدخلوا الإسلام جميعاً. أي أن سكان تلك المناطق استهدوا إلى نور الإيمان ببركة التبليغ الذي قام به أولئك الأطهار الذين جاؤوا إليهم من الأناضول بأحوالهم لا بأقوالهم فقط.

> ثمة أنواعاً من الأشعة غير المرئية في الكون مثل أشعة ألفا، والبيتا، والغاما، والأشعة تحت الحمراء وغيرها.. فإن هناك أشعة لا نراها ولكننا نشاهد آثارها تنبعث من قلب الإنسان. ونطلق على النوع الإيجابي لهذه الأشعة القلبية تسمية الفيض، وعلى النوع السلبي تسمية "الغفلة" "القسوة".
>
> فمثلاً عندما نستمع إلى آية قرآنية أو حديث نبوي من إنسان صالح نشعر بتأثير مختلف عما إن قرأنا الآية أو الحديث ذاته بأنفسنا أو سمعناه من أحد العوام. وهذا ناتج عن الاختلاف القلبي.

وإذا رجعنا إلى التاريخ قليلاً نجد أن التجار المسلمون أصبحوا بحرصهم على الالتزام بقانون وأخلاق التجارة، ورعاية حقوق العباد، والوقوف عند حدود الحلال والحرام، أصبحوا وسيلة لدخول إندونيسيا للإسلام والتي تعد من أكبر الدول الإسلامية بعدد السكان المسلمين اليوم.

هناك أمثلة لا تعد ولا تحصى عن الحالات التي صارت فيها نموذجية المسلم الفعلية وسيلة للهداية. ومن هذه الأمثلة ما يتحدث عنه والدي المرحوم موسى أفندي، حيث يقول:

"لقد كان لنا جار غير مسلم دخل الإسلام فيما بعد. ولما سألته عن سبب هدايته قال: كان لي جار في المزرعة يُدعى ملا ربعي، وأسلمت بفضل أخلاقه الحميدة في التجارة. فقد كان رجل يؤمن قوت يومه بالعمل في بيع الحليب، وذات يوم جاء إلينا، وقال: تفضلوا خذوا هذا الحليب، فهو لكم!. تعجبت من تصرفه، وقلت له: وكيف ذلك؟ فأنا لم أطلب منك حليباً! فقال ذاك الإنسان الحساس والرائع: لقد دخلت إحدى دوابي إلى حقلكم ورعت فيه دون أن أنتبه. ولهذا فإن هذا الحليب لكم. وسوف أجلب لكم الحليب الذي يأتيني من تلك الدابة حتى يخرج ما أكلته من بطنها ويزول أثرها من جسمها تماماً. فهذا التصرف الذي صدر من ذاك الإنسان الصالح ترك أثراً عميقاً لدي. وبالنتيجة أزاح حجب الغفلة عن عيني، واتقد نور الهداية في قلبي ثم نطقت بالشهادتين وأسلمت".

إذاً؛ إن أصغر تصرف ملتزم بالإسلام يبديه مسلم صالح قد يحدث أحياناً من التأثير الإيجابي ما لا يحدثه أبلغ العبارات الأدبية، وأكثر البيانات والشروحات العلمية عمقاً.

الله ﷻ يقدم العون والمدد لأهل التقوى والإحسان، ويمهد الطريق أمامهم، ويفتح لهم الآفاق، ويطرح في كلامهم بركة التأثير.

كما أن الشخصيات النموذجية أمثال يونس امره، ومولانا، وعبد القادر الجيلاني، وشاه نقشبند، وهدائي لا يزالون أحياء في القلوب، فإن هناك حاجة ماسة اليوم أيضاً إلى مؤمنين من أهل القلب الذي سيصبحون وسيلة السعادة الأبدية للإنسانية عن طريق السير على أثر أولئك. ولهذا ينبغي أن يكون هدفنا وغايتنا القلبية السامية السعي لأن نكون مسلمين نموذجيين من أهل الإخلاص والتقوى. حيث أن الله تعالى يشير إلى ضرورة أن نسعى لأن نكون أئمة في التقوى إضافة إلى الالتزام بالتقوى، وذلك في الآية القرآنية:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤)

كانت الحاجة ماسة في كل عصر إلى مسلمين نموذجيين ليكونوا أئمة وقادة للناس في المجتمع. وأما اليوم فنحن بأمس الحاجة إلى هؤلاء. ولكن لا يمكن أن ننتظر نزول هذه الشخصيات من السماء. لذا علينا أن نسعى لأن نكون نحن مسلمين نموذجيين قبل كل شيء. ثم بعد ذلك لا نتردد في بذل مختلف التضحيات والقيام بكل ما أمكننا القيام به من أجل إعداد وتربية المسلمين النموذجيين الذين نحتاج إليهم.

فالمسلمون في هذا العصر أيضاً مجبرون على تقديم أسوة حسنة لكي يثبتوا للناس أن صفة الأسوة الحسنة التي كان يتمتع بها رسول الله ﷺ يمكن نقلها إلى سائر العصور والأزمنة.

طريق الهداية في عهد النبي ﷺ لم يكن العمل على الكلمات والعبارات، ولا الانشغال بأمور فارغة خاوية من المعنى؛ وإنما هو السير على أقصر الطرق بين الله والإنسان، والبحث عن طريق إعداد وتربية الشخصية. فطريق الهداية لا يكون من خلال الاستدلال بالقرآن والسنة فحسب، وإنما من خلال تطبيق القرآن والسنة والالتزام بهما.

هناك قصة تحتوي على الكثير من العبر يرويها مولانا جلال الدين، يقول:

"خرجت ذات يوم من الدار ليلاً. وبينما كنت أتجول في أحد الحقول، نظرت فرأيت إنساناً يتجول في الحقل وبيده مصباح. فناديته: عما تبحث هنا؟ فأجاب: أبحث عن الإنسان! فقلت له:دعك من هذا، اذهب إلى فراشك ولا تتعب نفسك. فقد تعبت كثيراً بدوري من البحث عنه. فنظر إلي نظرة كلها ألم وأسى، وقال: وأنا أعلم أني لن أجده، ولكني على الأقل أتجول وأنا أبحث عنه وأتحسر عليه، فحتى في حسرتي عليه وشوق إليه لذة ومتعة لي".

لقد ارتحل رسول الله ﷺ والصحابة الكرام إلى الدار الأبدية بعد أن أدوا مهامهم في الدنيا الفانية على أكمل وجه. وسنكون نحن بدورنا بعد مدة لا نعلم مقدارها من المودعين لهذه الدنيا الفانية مثلهم. ولا يستطيع الواحد منا أن يصبح اليوم صحابياً مثلهم. فهم نجوم متلألئة، ومثل عليا.

إلا أن الله تعالى يقول:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)

إذاً؛ لا يزال بإمكاننا أن نكون من المؤمنين أهل الإحسان الذين اقتدوا بالمهاجرين والأنصار واتبعوا طريقهم بإحسان... حيث يقول رسول ﷺ:

"**المرء مع من أحب**" (البخاري، الأدب، ٩٦)

وفي سبيل تحقيق هذه المعية والصحبة قام الصحابة الكرام بعدة أمور:

١) اتخذوا القرآن والسنة هدياً لهم.

٢) اطلعوا على الأسرار والحكم الإلهية من خلال الالتزام بالدين وعيشه بظاهره وباطنه.

٣) دفعتهم محبتهم إلى التضحية بأموالهم وأنفسهم. فقد بلغوا رسائل رسول الله الداعية إلى الإسلام للملوك والأباطرة أمام سيوف الجلادين المسلولة دون أن يرف لهم جفن. ذهبوا إلى الصين، وسمرقند، وجاؤوا حتى وصلوا إلى أسوار اسطنبول، لقد اعتبروا أنفسهم مسؤولين عن مسار العالم. فعاشوا حالة البيعة لله ورسوله في كل سكناتهم وحركاتهم.

ففي العقبة؛ بايعوا على حماية رسول الله أكثر من أنفسهم، وعلى وحمل أمانة الإسلام مهما كان الثمن ولو على حساب أرواحهم. وفي بدر؛ قالوا: "يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد".

كل المجتمعات اليوم يبحثون عن المثل والشخصيات النموذجية. حيث يمر كل يوم الآلاف من الزوار بمقامات وأضرحة أولياء الله. وهذا مظهر من مظاهر الشوق إلى الإنسان المثل، والمؤمنين القدوة.

ونحن بدورنا إذا ما تمتعنا بالغيرة الدينية وحصلنا نصيباً من مضمون هذه البيعات؛ وإذا استطعنا الهجرة من الباطل إلى الحق، ومن الشر إلى الخير، ومن الذنب إلى الثواب، ومن الاستئثار إلى الإيثار، ومن الأنانية إلى التضحية كالصحابة المهاجرين؛ وإذا ما استطعنا وضع كل إمكانات في خدمة دين الله تعالى، وتقاسم ما في أيدينا من أموال وممتلكات مع إخواننا في الدين من المظلومين والمضطهدين مثل الصحابة الأنصار؛حينها سنكون بإذن الله تعالى من المؤمنين المحسنين الذين اقتدوا بالمهاجرين والأنصار واتبعوا طريقهم بإحسان.

ولا ننسى أنه كما كان الصحابة الكرام تلاميذاً نشأوا في ظل تعليم رسول الله ﷺ وتربيتهم لهم، فإننا اليوم بدورنا من أمة وتلاميذ رسول الله في آخر الزمان، ومخاطبين بعد مرور أربعة قرون بذات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي خوطب بها الصحابة في صدر الإسلام.

وكما أدرك الصحابة الكرام التعاليم الإلهية والنبوية وفهموها وطبقوها في حياتهم ليكونوا مظهراً لشرف القرب من الله ورسول، فإننا المخاطبون بذات التعاليم مكلفون اليوم ببذل الجهد ذاته.

دعونا نقف على هذه الحادثة المليئة بالعبرة والعظة في هذا المضمار: ذات يوم أتى رسول الله ﷺ مع بعض أصحابه المقبرة، فقال:

«**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إنشاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا**» قالوا: أولسنا إخوانك؟ قال: «**أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد**» فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك؟ يا رسول الله فقال: «**أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم ألا يعرف خيله؟**» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم ألا هلم فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول سحقا سحقا**» (مسلم، الطهارة ٣٩، الفضائل ٢٦)

إذاً، إن تمسكنا بسنة النبي ﷺ والتزمنا بتطبيقها في حياتنا فإننا نمتلك الفرصة لأن نكون من إخوانه في آخر الزمان. ويقول النبي ﷺ:

"**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**". (مسلم، الإمارة ١٧٤/ ١٠٣٧)

فهذه الطائفة هم المرشدون الكاملون والأولياء الصالحون من أهل الأخلاق الرفيعة الذين يشتغلون في العلوم الظاهرية مثل العلماء، والفقهاء، والمفسرين والمحدثين الصالحين إلى جانب اشتغالهم بالقضايا الباطنية ليكونوا مثلاً وهداة للناس في الميدانين معاً. إنهم يطبقون تعاليم دين الله تعالى في حياتهم أولاً، ثم يرشدون الناس من حولهم بأحوالهم، وأقوالهم وأفعالهم.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا جميعاً من الطائفة ومظهراً لهذه البشارة والأجر والثواب.

لنفهم أهمية مسؤولية القدوة بشكل أفضل يمكن الحديث أيضاً عن الضرر الكبير الذي ألحقه بالإسلام شخصيات من ذوي صفة القدوة السيئة المتلبسين في الظاهر بالهوية الإسلامية. فكما أن هداية إنسان إلى الحق خير مما طلعت عليه الشمس، فإن التسبب بإبعاد الناس عن الدين الحق والهداية من خلال السلوك والتصرفات والأفعال السيئة المرتكبة تحت الهوية الإسلامية خسران عظيم. فبعد عصر السعادة ظهرت فرق استخدمت الدين لتأييد آرائها ومواقفها السياسية، واستغلته لتحقيق مصالحها ومآربها الدنيوية زاعمة أنها إنما تعمل لخدمة الدين، وهي في الحقيقة ألحقت به أشد الضرر.

يقول الرسول ﷺ:
"**مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره**". (الترمذي، الأدب ٨١)
إذاً؛ إن الباب مفتوح أمامنا إلى يوم القيامة لأن نكون قطرة رحمة من هذا المطر المبارك. ولا يُطلب منا سوى أن نلتزم بالاستقامة التي تؤهلنا لأن نكون من إخوان النبي ﷺ في آخر الزمان. فلنربي أبناءنا على هذه الاستقامة، ولنعمل بدل ذلك على اتخاذ رسول الله وأصحابه معياراً وقدوة لنا.

إن أصعب الأمور هو القضاء على جشع وطمع الإنسان. ولهذا يجب إخضاع النفس للتربية والتزكية. فمثلاً كان علماء بني إسرائيل أعلم الناس بالتوراة. إلا أن ذلك العلم لم ينفذ إلى قلوبهم لأنهم كانوا لم يخضعوا لتزكية النفس. فلم يوصلهم علمهم المجرد إلى التقوى والحكمة، ومرتبة معرفة الله ﷻ، وخشيته. ولهذا فإنهم تساهلوا في دينهم وتنازلوا عن تعاليمه دون تردد في سبيل منافع دنيوية زهيدة وحقيرة.

وإن الجرائم، وأشكال الظلم والاضطهاد التي اقترفت باسم المسيحية المحرفة وخاصة في العصور الوسطى

دفعت الناس إلى استبعاد الدين عن الحياة الاجتماعية. وتسبب بولادة الأنظمة البشرية مثل العلمانية. فالتأثير السلبي الذي تركه على نظرة المجتمع إلى الدين الأشخاص والجماعات التي تسببت بالفتن والفساد، وارتكبت المظالم بحق الناس أمر ثابت وظاهر للعيان.

ولهذا فإن ينبغي على من يتصدر للعمل تحت الهوية الإسلامية أن يخضع أولاً لتزكية النفس، وأن يبذل غاية جهده للحفاظ على الاستقامة ومشاعر التقوى. وإلا فإن هناك احتمالاً كبيراً أن يصبح قدوة سيئة بدلاً من أن يكون قدوة حسنة. إذاً؛ إن عدم توفر حساسية التقوى، وعدم لجم مطامع النفس وهواها بالتزكية، وتلقي الإسلام ضمن معايير وقوالب جامدة دون النفوذ إلى روحه يدفع الإنسان إلى الهلاك المعنوي.

ومن جهة أخرى يولد الإنسان على فطرة الإسلام كما ورد في الحديث النبوي:

«ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه..» (البخاري، الجنائز، ٨٠؛ مسلم، القدر ٢٢، ٢٣)

فالله ﷻ يخلق ابن آدم على الفطرة السليمة ويرسله إلى الدنيا مكرماً. ويحمي الإنسان صفة التكريم هذه ويستحق دخول الجنة من خلال التربية السليمة والإيجابية التي يتلقاها من محيطه. وإلا يتحول قلبه إلى خراب وينتهي إلى عاقبة أليمة.

ولهذا كل مؤمن مكلف بالحفاظ إلى استقامته والحذر من الانحراف عنها. ولكن الأهم من ذلك عليه أن ينهض بمسؤوليته الكبيرة تجاه من هو مسؤول عنهم، وهذه المسؤولية هي أن يكون قدوة حسنة لهم.

فكما أن أحوال قادة المجتمع الحسنة تترك تأثيراً إيجابياً على المحيطين بهم، فإن أخطاءهم بدورها قد يتم تلقيها على أنها أفعال وتصرفات صحيحة أيضاً. فأي إهمال مهما كان صغيراً يصدر عن القائد يكبر ويتضاعف لدى من يتخذونه قدوة، ومن ثم يؤدي إلى أضرار لا يمكن تلافيها. وهذا الأمر ينطبق على كافة أطياف وطبقات المجتمع ابتداء من الأسرة وانتهاء برئيس الدولة.

والتاريخ مليء بالأمثلة من هذا. فمثلاً كان أحد الأمراء من أمراء بني أمية اللذين حكما قبل عمر بن عبد العزيز الملقب بالخليفة الراشدي الخامس لشدة عدالته، واستقامته، كان مغرماً بالقصور والأبنية الفارهة. واتخذه الناس في عصره مثلاً لهم فاتجهوا نحو تملك البيوت الفاخرة. فأضحى حديثهم في المجالس والمساجد عن أموال الدنيا ومظاهرها. وأصبح الناس في سبيل إظهار قوتهم وملاءتهم المالية أمام أقرانهم يتسابقون إلى بناء البيوت والقصور الفاخرة المزينة بأبهى أشكال الزينة، فوقعوا ضحية مصيبة الإسراف.

وأما عمر بن عبد العزيز فكان مؤمناً عابداً زاهداً من أهل التقوى. وكان الناس في عهده يتسابقون في العبادات والطاعات، والإنفاق. وكانت أحاديثهم في المجالس عن العبادة، حيث كان يقول أحدهم لأخيه إن لقيه في مجلس: ماذا كان وردك الليلة الفائتة؟ كم آية حفظت من القرآن الكريم؟ وكم أنفقت؟. وهكذا كان الناس يحثون بعضهم على عمل الخيرات. وكذلك كان الناس في عهده الذي استمر لمدة قصيرة ولكنه ملئ بالخير والبركة، كان الناس يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن الفقراء والمحتاجين، فيهتمون بأداء زكاة أموالهم والصدقات حتى لم يعد الغني ولأول مرة في التاريخ يجد فقيراً يعطيه زكاة ماله.

إذاً؛ يتم اتخاذ أحوال القادة والوجهاء في المجتمع قدوة ومثلاً. فخيرهم وشرهم يسري إلى سائر أفراد المجتمع ويشيع بينهم.

ظهر في عصرنا الحالي بعض من التاريخيين الدينيين الذين يعملون من خلال هوية إسلامية مزعومة على إلغاء المذاهب الإسلامية، والإقلال من أهمية ومنزلة السنة النبوية، ومن ثم يجهزون الأرضية للتهجم على القرآن الكريم، والعبث بالكثير من آيات الأحكام فيه ووقف العمل بها بذريعة أنها إنما تنحصر بمرحلة تاريخية ومنطقة جغرافية معينة.

الدكتور: سليمان درن

خُلُق الرحمة بكل الكائنات

إن الاطلاع والامتثال لا المعرفة أهم أمر تنبه إليه أهل التصوف في ميدان الحياة الدينية، وكذا أولوا الاهتمام ليس التعلم فحسب بل ضموا إليه التطبيق. وقد كان دليل المتصوفة في هذا الذي نتحدث عنه هو قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]

وعلى ضوء هذه الآية الكريمة جعلوا هدفهم في حياتهم الارتقاء بالإسلام إلى مستوى الإحسان، وبلوغ المرتبة التي لا يغفلون فيها ولو للحظة واحدة عن أنهم يقفون في حضرة الحق ﷻ. وبناءً على ذلك فإن أهل الله من الصوفيين يسعون جاهدين لأن يحملوا أخلاق القرآن والسنة السامية إلى عصرهم بأبهى وأجمل صورة. وفي الواقع يعتبر المتصوفة المعرفة الدينية التي لا يصحبها عمل مجرد معرفة جافة. ويعبر الإمام الرباني عن هذا الأمر بالبيت الآتي:

"من لم يكن عن نفسه ذا
خبرة يعد عاجزاً عن
الإخبار عن هذا وذا"

(المكتوبات، المكتوب: ١٠١)

وأود في هذا المقال أن أشارككم جملة من المناقب الأخلاقية الجميلة التي تحلى بها الصوفيون لنرى بعين اليقين نماذج وأمثلة حية عن إمكانية تطبيق الإسلام في كل زمان ومكان. ونحن لم نتطرق بالحديث عن أخلاق رسول الله ﷺ السامية، إذ أن القرآن الكريم قد شهد بكل الأحوال على تميز هذه الأخلاق ورفعتها وتفردها:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤]

فهدفنا هنا أن نتبين أن معجزة أخلاق النبي ﷺ لم تبق حبيسة التاريخ، وإنما شهدت أمثلة لا حصر لها من التطبيق والتحلي بها على مر العصور. وكلنا أمل في أن ننضم نحن بدورنا إلى هذه الحملة الأخلاقية التي نحن اليوم بأمس الحاجة إليها أكثر من أي يوم مضى.

إن أهم مبدأ من مبادئ أهل الله إنما هو تعظيم أوامر الله تعالى، وإظهار منتهى الشفقة بعباده. وقد كانت عباداتهم المخلصة والصادقة للحق ﷻ موضوع الكثير من المؤلفات والمقالات، ولكن كما أن صيامهم، وخلواتهم، وصلواتهم كانت ولا تزال في غاية الإتقان والجمال فكذلك فإن إشفاقهم على عباد الله تعالى ورأفتهم بهم لا يقل شأناً أبداً.

وكما قال حضرة موسى طوبّاش:

"يظن الكثير من الناس أن الترقي المعنوي إنما يكون بالعبادة فحسب... فهناك الكثير من الناس لهم نوافل كثيرة، فهم صائمون قائمون على الدوام. إلا أنهم لا يعيرون اهتماماً لمسألة الحرام والحلال، ولا يجهدون للتخلق

السير والسلوك في نظر الإمام الرباني إنما هو الوصول إلى الأخلاق الحميدة. و يرى أن أبا بكر ﷺ قد تقدم على باقي الصحابة من خلال نجاحه في التحلي بأخلاق النبي ﷺ: "ولما كان الصديق ﷺ متخلقاً بكمال الأخلاق الذي كان فيه ﷺ وفانياً فيه خُص من بين سائر الأصحاب ﷺ بخصوصية هذا الطريق".

بالأخلاق الإسلامية، ويقضون أوقات فراغهم بالغيبة والنميمة... ويا ليت أن هؤلاء أقلو من نوافلهم، وبذلوا عوضاً عنها جهوداً في مسألة التحلي بالأخلاق الحميدة، ورعاية حقوق العباد".

دعونا نصغي السمع معاً إلى عبيد الله أحرار:

"كنت قد توليت مهمة خدمة اثنين أو ثلاثة من المرضى في مدرسة مولانا قطب الدين في سمرقند. وكان إذا اشتد عليهم المرض أحدثوا في الفراش. فكنت أقوم بغسلهم وتنظيفهم، وألبسهم ثيابهم بيدي. ولأنني كنت أقوم بخدمتهم على الدوام أصبت بالعدوى منهم، وأصبحت طريح الفراش مثلهم. إلا أنني ورغم حالتي هذه بقيت أجلب جراراً من الماء، وأنظف أوساخ المرضى".

وإن حضرة بهاء الدين النقشبندي الذي تنسب الطريقة النقشبندية إليه خضع بدوره للتربية المعنوية عن طريق الشفقة والخدمة. فقد تلقى التربية المعنوية من خلال الاشتغال بخدمة الناس سبع سنين، ثم الاشتغال بخدمة الحيوانات ومداواة مرضاها وتنظيفها سنين. وأوصاه مرشده وشيخه أمير كلال بالقول:

"عليك الاشتغال بجبر الخواطر؛ وخدمة العاجزين، والضعفاء والمنكسرين. فهم لا رجاء لهم من الناس. وأكثرهم يرحلون وهم منكسرين، ومتواضعين، ومطمئني القلب. فابحث عن مثل هؤلاء واشتغل بخدمتهم".

ولم يكتف كبار أهل التصوف بإظهار الرحمة والإشفاق بالإنسان فحسب، وإنما كانوا في الوقت ذاته على قدر كبير من الشفقة والرحمة بالحيوانات أيضاً. ومن أجمل الأمثلة على هذه المنقبة العظيمة لرجال التصوف والتي تنير لنا درب التربية المعنوية ما أبداه أبو يزيد البسطامي من مشاعر الرأفة والشفقة تجاه النمل. حيث يُروى أن أبا يزيد البسطامي خرج ذات يوم في سفر، وفي الطريق نزل تحت ظل شجرة فاستراح برهة ثم تابع رحلته. وفي الطريق رأى بعض النمل

على جعبته، كانت قد تسللت إليها من المكان الذي نزل فيه. فقال في نفسه يا ويلتاه لقد حرمت هذه النملات من وطنها، ثم رجع من فوره إلى ذلك المكان وترك النملات هناك شفقة ورحمة بها حتى لا يحرمها من وطنها، وتعيش حياة غربة واضطراب. لقد تحمل أعباء العودة بعد أن قطع مسافة طويلة في طريق رحلته فقط لأن يعيد هذه النملات إلى موطنها. لأن النملات شأنها كشأننا فهي كائنات حية وحتى أنه نزلت سورة من القرآن الكريم باسمها. ولكننا مع الأسف نشاهد في يومنا هذا مشاهد تعذيب الحيوانات، والإساءة إليها ببالغ الحزن والأسى، هذا مع أن المتصوفين قد نقلوا الأوامر بالرحمة والإشفاق الواردة في القرآن الكريم، ومحبة النبي عليه الصلاة والسلام ورحمته الواسعة بكل الكائنات الحية إلى عصرهم وزمانهم وامتثلوا بها أجمل امتثال.

إن نمط الحياة الحديثة لا يهدد الإنسان فحسب، وإنما يشكل في الوقت ذاته تهديداً لكافة الكائنات الحية، والطبيعة على حد سواء. فبسبب جشع الإنسان وإفراطه في كل مناح الحياة تلوثت البحار، والأنهار، والجبال والغابات، وصارت وكأنها تأنّ من ظلم الإنسان. إن يونس إمره في كثير من أناشيده التي يعرفها أغلبنا يتحدث مع الأزهار والورود، ويذكر ربه مع الجبال والحجارة والصخور، ويعيش بوئام وسلام مع كل كائن في الوجود. فخلق المتصوفة خلق شفقة ورحمة تتسع لكافة الكائنات في الوجود. وقد رأينا من خلال بعض الأمثلة الحية التي تُعد بمثابة قطرة من بحر واسع، رأينا إمكانية تطبيق خلق الرحمة هذا في وقتنا المعاصر أيضاً. فالذي جعل كبار رجال التصوف كباراً ليست الكرامات، وإنما الاستقامة، والأخلاق الحميدة التي تُعد من أعظم الكرامات.

نسأل المولى عز وجل أن يوفقنا في حمل مكارم أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام إلى عصرنا هذا كما شاهدنا في الأمثلة المذكورة. وكما قال ضياء باشا فإن دين الإنسان يكمن في سلوكه وأعماله لا في أقواله.

عن ابن عمر ﷺ، قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه:

«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا» (الترمذي:٣٥٠٢)

نور الدين يلدز

لا تعني الدنيا أكثر من المعنى الذي تعبر عنه كلمة الخيال، فهي ليست أكثر من ذلك. فمهما حاولنا وصف الدنيا بعدميتها وتكوينها العاجز عن تلبية حتى تطلعاتنا وآمالنا، والحياة التي عليها لا يسعنا القول عنها إلا أنها خيال. وكل من نظر إلى الدنيا وتأمل منها شيئاً غير الخيال كان مخدوعاً.

والحقيقة الوحيدة مقابل الدنيا هي الآخرة. وكل من عذاب جهنم ونعيم الجنة حقيقة لا ريب فيها. إنها حقيقة لا تشوبها شائبة لأنها أبدية. فكل شيء أبدي لا يكون إلا حقيقياً. وسنجد نحن البشر تطلعاتنا ومطامحنا على أرضية حقيقية. وستنتهي حسراتنا هناك. وهناك سنجد السعادة الحقيقة، وستكون الدار الخالية من الآلام والأحزان. فهناك المكان الوحيد الذي لا فراق فيه ولا عبوس، ولا تفارق الابتسامات الوجوه، هناك حيث تنتهي الهواجس والمخاوف، وحتى الموت يموت فيه. فالآخرة هي الحقيقة الوحيدة. ولأن الجنة والنار هما نقطة الوصول النهائية فإنه سيتبين أن كل النقاط التي ظُن من قبل أنها نقاط وصول ما هي إلا مجرد خيال. والذين استطاعوا أن ينظروا إلى الدنيا ويعيشوها على أنها ليست إلا استراحة مسافر في ظل شجرة فإنهم سوف يتذكرون الظل الذي استظلوا به يوماً كذكرى جميلة في منازلهم الأبدية في الجنة التي سيدخلونها بإحسان وكرم من المولى عز وجل.

الإنسان مخلوق مكرم، مشرف بالعقل والإدراك، فقد خلق قادراً على التفكير، والفهم والإدراك، والنظر إلى المستقبل واستشفافه. وما تميزه بين الفاني والأبدي، والخيالي والحقيقي إلا نتيجة لكونه

إنسان. ومن ثم فإن التعامل مع الدنيا الفانية معاملة الدار الأبدية ليس بالتصرف الإنساني. فالإنسان مجبر على التفكير بالسعادة الأبدية. فالتعلق بالفاني، والاستغراق بالخيال يضر بالقيم الموجودة في الإنسان. فالسعي خلف الحقيقة صعود للأعلى ورفعة، وأما السعي خلف الخيال، فهبوط ومذلة.

إن طريق البحث عن الحقيقة أو الواقعية يمر بالخضوع بالعبودية لله تعالى خالق الحقيقة والخيال بكل ما للكلمة من معنى. فالعيش في الحياة كإنسان مؤمن عبداً لله عز وجل بداية جيدة وموفقة. حيث أن المتمتع بالإيمان الراسخ يتبع أثر الحقيقة ويسعى خلفها. ويعزز الحقيقة بالسير على درب حياة مطهرة ومصفاة من الحرام. وإن تنفيذنا أو قيامنا بالوظائف الموضوعة أمامنا كفروض يثبت أن أعمالنا ليست ضرباً من الخيال، وأننا نسير نحو الحقيقة الأبدية.

إن كل دقيقة أو نقطة نلتقي فيها بحرمات الله تعالى من الربا، والزنا، والقمار، والكذب وغيرها ما هي إلا مخاطر ابتعادنا عن الحقيقة وغوصنا في الخيال، وفقداننا أثر الحقيقة. وكذلك فإن ما نقوم به من أعمال صالحة مثل قيامنا بالدعاء، وخدمة الوالدين تنفيذاً لأمر الله تعالى، وحسن التعامل والتصرف في الأعمال الإنسانية، والسرور بالإنفاق والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنها إنما تُفعل للوصول إلى الحقيقة أيضاً.

فما الحماس والجدية في لحظة النهوض لصلاة الفجر في الواقع سوى لحظة انفكاك للإنسان عن النوم الذي هو خيال وتوجه للصعود نحو الجنة التي هي حقيقة. وما دفع المؤمن الزكاة من ماله ورزقه الحلال لشخص غير مدين لنا إلا فعل إنسان استقرت الحقيقة في داخله. وكذلك فإن اعتقادنا الجازم أن الله سبحانه وتعالى يسمعنا عندما نتوجه إليه بالدعاء، والأمل الذي يملأ قلوبنا ونحن ننتظر من ربنا عطاء يثبت الأمر ذاته. وأفضل عبارة يمكن أن نشرح ونفسر بها حال الشهيد وهو يجري إلى الجنة التي وُعد بها في المستقبل تاركاً الدنيا التي أمام عينه بكل زينتها وبهرجها هي أنها ترك للخيال وسعي نحو الحقيقة. وإلا ليس من تفسير مختلف بالنسبة لإنسان يفارق أحباءه، وينفض يديه مما كد وتعب في جمعه.

يجب أن يكون اهتمامنا بالتأكد مما إن كنا نرى الحياة الدنيا خيالاً، والجنة والنار حقيقة، وظيفة لنا يأمرنا بها العقل، بقدر اهتمامنا بقبول صلاتنا من عدمه. وإن كنا نعلم أن الدنيا والحياة فيها خيالاً، ونقر بذلك فعلينا أن نختبر نمط حياتنا لنتأكد ما كان متوافقاً مع هذا الإقرار. فالسعي خلف الحقيقة والعيش وفق الخيال اغترار وضلال.

لقد قال الأنبياء والرسل هذا ورحلوا. وتاريخ العالم البعيد والقريب ينطق بهذا. والحياة ذاتها تنظر بأعيننا وتصرخ بهذه الحقيقة، حيث تقول: الدنيا خيال، والآخر حقيقة. فالذين يقرون أن الدنيا خيال، ويسعون باحثين عن الحقيقة هم المؤمنون الحقيقيون.

اللهُّم لا تجعل الدُنيا أكبر همنا ولا مَبلغ علمنا ولا إلى النار مصيرنا ، وأجعل الجنّة هي دارنا وقرارنا ، اللهُّم أتنا في الدُنيا حسنَ وفي الأخرة حسنّة وقنا عذاب النار.

إنَّ الفقه الإسلامي في أيام نشأته الأولى في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن مدوَّناً كما هو معروف لدينا اليوم، ولم يكن البحثُ في أحكام الأحوال العارضة والنازلة مثلَ بحث الفقهاء بعد نضوج هذا العلم واستوائه على سوقه، حيث يُفرغُ الفقيه الوسعَ لاستنباط الأحكام من مصادرها وتبيينِ ما هو ركنٌ أو واجبٌ أو سنَّة أو شرط أو سبب، إلى غير ذلك من دِقَّةٍ في التمييز، وبيان للتفاصيل، المقترن بالدليل أو التعليل.

لقد نشأَ هذا العلم وترعرع وشَبَّ حتى نضجَ واكتمل تحت ظلال الوحي وفي رعاية إلهية، وكأنَّه فيه نزل قوله تعالى: {**ولِتُصنَعَ على عَينِي**} [طه: ٣٩]، ومَرَّ في أطوار متعددة حتى تمَّتْ صورته واكتمل بنيانه حتى أصبح أعظمَ و أكبرَ ثروة تشريعية عرفتها الأمم قاطبةً على مرِّ العصور، وسنعرض هذه الأطوار بشكل موجز حتى تتضح في أذهاننا مراحل نشوء هذا العلم وتطوره.

- الطور الأول: عصرُ النُّبوَّةِ:

كانت الأحكام في عصره عليه الصلاة والسلام تُستَقَى من مَعِينها العذبِ الصافي مباشرة، وكان الصحابة رضي الله عنهم يَرقُبونَ الرسولَ ﷺ في كل أحواله، وفي حِلِّه وتَرحاله، كمَن يَرقُبُ خيرَ السَّماء في أيام قَحطٍ و جَدبٍ، فكان عليه الصلاة والسلام يَستَفتِيه الناسُ فيُفتِيهم، وترفعُ إليه القضايا فيقضي بها، وإذا ما رأى عليه الصلاة والسلام شيئاً معروفاً أثنى عليه ومدحَه، وإذا ما رأى منكراً أنكرَهُ وقَوَّمَهُ. إذا توضَّأ يرى أصحابُه وضوءَهُ فيأخذون به ويفعلون كفعله صلى الله عليه وسلم دون السّؤال عن ركن أو سنَّة أو أدب مع فِقههم لذلك لما طُبعوا عليه من السَّليقَة العربية السَّليمة، وصفاء في القريحة، وكان إذا صلَّى يرون صلاتَه، و يصلون كما رأوه يصلي امتثالاً لأمره صلى الله عليه وسلم:

"**صلوا كما رأيتموني أصلي**" [صحيح البخاري]

دون استفسار منهم وخوض في التفاصيل، و كان هذا غالبَ حاله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فيما يَعرِضُ من أحكام وأقضية وفتاوى في شتى أنواع العبادات والمعاملات والجنايات والأمور الأخرى، وكانت مصادر التشريع في هذا الطور هي الكتاب (القرآن الكريم) والسّنّة النبوية.

- الطور الثاني: عصر الصحابة:

يُعَدُّ هذا العصر هو عصر التفسير التشريعي، وفتح أبواب الاستنباط فيما لا نصَّ فيه من الوقائع، فقد صدر عن فقهاء الصحابة وأعلامهم آراءٌ كثيرة في تفسير النصوص الشرعية حتى أصبحت هذه الآراء والتفسيرات مرجعاً لمن جاء بعدهم، كما صدرتْ عنهم فتاوى كثيرةٌ في وقائعَ لا نصَّ فيها تعتبر أساساً للاجتهاد والاستنباط، فبعد وفاة النبي ﷺ ولحاقه بالرفيق الأعلى سنة (١١) للهجرة انقطع وحي السّماء، ووقع على كاهل الصحابة القيام بأحكام الدِّين والتّصدي للفتوى، وقد اتسعتْ رقعة الفتوحات الإسلامية، ودخل الناس على اختلاف ثقافاتهم وتوجهاتهم الفكرية والدينية في دين الله أفواجاً، كلُّ ذلك أدَّى إلى اتساع دائرة الفقه وكثرة الوقائع المستجدة التي تحتاج إلى حكم الشريعة فيها، وتفرَّق الصحابة ﷺ في عموم بلاد الإسلام، وقد اختلفتْ درجات تلقي الصحابة ﷺ عن رسول الله ﷺ ، فمنهم مَن كان ملازماً للنبي ﷺ في أغلب أحيانه كأبي بكر وعمر ﷺ، ومنهم مَن كان يحرص على سماع حديث النبي ﷺ وحفظه ومتابعته ﷺ في أفعاله وتقريراته وملاحظة صفاته الخَلقية والخُلُقية وجميع أحواله ما وجد إلى ذلك مِن سبيل، حتى كان هناك مِن الصحابة مَن روى عن النبي ﷺ أكثر من خمسة آلاف حديث كأبي هريرة ﷺ، ومنهم مَن روى ما لا يتجاوز عدد أصابع اليد أو بعضاً منها، واختلفتْ أيضاً درجات فقه الصحابة لما تَلقَوا عنه صلى الله عليه وسلم، فهناك مَن يعتبر من فقهاء الصحابة وأهل الفتيا فيهم، كعمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود والسّيدة عائشة وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين، ومنهم مَن هو دون ذلك، وإلى ذلك يشير حديث النبي ﷺ: **"فَلْيُبَلِّغ الشاهدُ الغائبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوعَى مِن سَامِعٍ"** [رواه البخاري].

والمنهج الذي اتَّبعه سادة هذا العصر وورثة عصر النُّبوَّة عندما تعرض لهم واقعة مستجدة ليحكموا فيها هو النَّظر في كتاب الله أولاً فإن وجدوا فيه حكمها لم يَعدِلُوا عنه إلى غيره، وإلا نظروا في سنَّة رسول الله ﷺ فإن وجدوا فيها حكم تلك الواقعة لم يَعدِلُوا عنها إلى غيره، وإن لم يجدوا دخلوا في باب الاجتهاد لاستنباط حكم تلك الواقعة، فإن اتفقتْ آراؤهم على حكم واحد كان إجماعاً، مثل اتفاقهم على قتال مانعي الزكاة، وجمع القرآن الكريم بين دَفتين، وإن لم تتحد آراؤهم أفتى كل واحد منهم بما قامت الحجّة والدليل عليه عنده، فعن ميمون بن مهران قال: "كان أبو بكر الصديق ﷺ إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم، وإنْ علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى به، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنّة، فإن أَعيَاهُ ذلك دعا رؤوسَ المسلمين وعلماءهم واستشارهم، وأنَّ عمر بن الخطاب ﷺ كان يفعل ذلك". [انظر: البيهقي، السنن الكبرى، ١٠/ ١١٤؛ ابن حجر: فتح الباري، ١٣/ ٣٤٢]

وكانت مصادر التشريع في هذا الطور هي الكتاب (القرآن) والسنّة النّبويّة واجتهادات الصحابة ﷺ.

- الطور الثالث: العصر الذهبي للتشريع (عصر التدوين والأئمة المجتهدين):

امتدَّ هذا العصر من أوّل القرن الهجري الثاني حتى أواسط القرن الرابع الهجري، حيث نشطتْ فيه حركة التدوين والكتابة، فيه دوّنتِ السنة وفتاوى المفتين من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وفقه الأئمة المجتهدين، وفيه برزتْ مواهب عدد كبير من رجال الاجتهاد و الفقه والأصول والحديث وغيرها من العلوم الإسلامية.

تصدّى فقهاء التابعين رحمهم الله في بداية هذه الحُقبة التشريعية للفتوى واستنباط الأحكام للوقائع

الطارئة، بعد طول ملازمة للصحابة رضي الله عنهم حيث أخذوا عنهم القرآن، ورووا عنهم السنة، وحفظوا فتاويهم، وفهموا منهم أسرار التشريع وطرق الاستنباط، ومنهم مَن كان يفتي في حياة الصحابة أنفسهم مثل: سعيد بن المسيب بالمدينة، وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبير بالكوفة، وقد لازم هؤلاء التابعين في حياتهم جماعة من تابعي التابعين تلقوا عنهم ما تلقوه عن الصحابة، ولازم تابعي التابعين جماعة من طبقة الأئمة الأربعة المجتهدين ومعاصريهم من رجال الاجتهاد والفقه، وهكذا كانت كل طبقة منهم خلفاً لمن سبقهم، وأساتذة لمن خلفهم، وبذلك كانت حركة الفقه والتشريع متصلة، رفيعة أصيلة النَّسب.

وكانت مصادر التشريع في هذا العهد أربعة:

القرآن والسنّة والإجماع والاجتهاد

بواسطة القياس أو بأي طريق آخر من طرق الاستنباط، فكان الفقيه أو المفتي إذا وجد في المسألة الحادثة نصاً من كتاب أو سنّة وقف عنده ولم يتعداه إلى غيره، وإن لم يجد نظر فيمَن سبقه من المجتهدين هل أجمعوا في هذه الواقعة على حكم، فإن أجمعوا وقف عند ما أجمعوا عليه وأفتى به، وإلا اجتهد واستنبط الحكم لتلك الواقعة بطريق من طرق الاستنباط المعهودة لدى أرباب هذا الشأن.

في بداية هذا العهد لم تتسع دائرة الخلاف في طبقة التابعين وكبار تابعيهم، وكانت الفتاوى والأقضية تصدر بقدر ما وقع منها، ولم يظهر في ذلك الحين ما يسمى بالفقه الافتراضي، لكونهم ساروا على نفس خطى من سبقهم ممن تلقوا عنهم من الصحابة وكبار التابعين، ولكن قامتْ فيما بعد مجموعة من المناظرات الفقهية نشأ عنها اختلاف في وجهات النّظر أسستْ بدورها لنشوء المذاهب الفقهية فيما بعد، فقد وقعت في المدينة مناظرات بين: ربيعة بن أبي عبد الرحمن وبين محمد بن شهاب الزهري ونظرائه، أدّتْ إلى أنَّ كثيرين من فقهاء المدينة كانوا يفارقون مجلس ربيعة، وإلى أنَّهم لقبوه (ربيعة الرأي)، ووقع في الكوفة مثل هذا بين إبراهيم النَّخَعي وبين الشَّعبي. فلما آلت رئاسة الفقه والاستنباط في أواسط القرن الهجري الثاني إلى طبقة الأئمة المجتهدين، أبي حنيفة وأقرانه وأصحابه، ومالك وأقرانه وأصحابه، كانت قد تكونت عدة آراء في منهج الاستنباط وفي بعض المبادئ العامة التي يسير عليها كل فقيه، ومن هذا التعدد في منهاج وطرق الاستنباط تكونت المذاهب الفقهية.

ويرجع الاختلاف بين الأئمة المجتهدين في مناهج الاستنباط إلى اختلافهم في أمور ثلاثة:

الأول: اختلافهم في تقدير بعض المصادر التشريعية:

كاختلافهم في مراتب السنّة من حيث الاحتجاج بها وقوتها، فقد قسّم الحنفية الحديث إلى متواتر ومشهور وآحاد، بينما ذهب غيرهم إلى تقسيمه إلى متواتر وآحاد فقط، وكاختلافهم في الاحتجاج في فتاوى الصحابة الصادرة عن اجتهاد منهم،حيث ألزم الإمام أبو حنيفة رحمه الله نفسه بها يتخير منها ولا يخرج عنها، بينما رأى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أنها فتاوى اجتهادية له أن يأخذ بها وله أن يتركها جميعاً.

مصادر التشريع في العصر الذهبي:
١- القرآن الكريم.
٢- السنّة النبوية.
٣- الإجماع.
٤- الاجتهاد.

والثاني: اختلافهم في النزعة التشريعية من حيث توسيع دائرة الاجتهاد ومراعاة المقاصد أو التضييق في ذلك.

- حيث ذهب فريق من هؤلاء الفقهاء إلى إمعَان النّظر في مقاصد الشرع والأسس التي بُنِيَ عليها التشريع، لقلَّة الأحاديث وفتاوى الصحابة، وبسبب انتشار الوضع، ولاختلاف البيئة التي نتج عنها اختلاف الأقضية والحوادث، فتشكّلتْ لديهم قناعة بأنَّ الأحكام الشرعية معقولٌ معناها، وأنَّ المقصود بها هو تحقيق مصالح الناس، وأنها تعتمد على مبادئ واحدة، ولها غاية واحدة، فلا تعارض بين

نصوصها وأحكامها، وعلى هذا الأساس يفهمون النصوص ويرجحون بينها، ويستنبطون فيما لا نصّ فيه، ولو أدّى ذلك إلى صرف نص عن ظاهره، أو ترجيح نصٍ على آخر أقوى منه رواية بحسب الظاهر، وأُطلِق على هؤلاء أهل الرأي، ومنهم أكثر مجتهدي العراق، وهم (**الحنفية**).

– أما الفريق الآخر فقد اتجه اهتمامهم إلى حفظ الحديث وفتاوى الصحابة رضي الله عنهم، وذلك لكثرتها حيث كانت لدى هذه المدرسة ثروة عظيمة من النصوص التشريعية وفتاوى الصحابة رضي الله عنهم، واتجهوا في عمليات الاستنباط لديهم إلى فهم هذه الآثار الواردة حسبما تدل عليه عباراتها من غير الغوص في عللها ومبادئها، فإذا وجدوا ما فهموه من النّص لا يتفق مع ما يقتضيه العقل قاموا بالتوقف عند حدود النص ولم يتجاوزوه، وكانوا يتحرجون من الاجتهاد بالرأي ولا يعملون به إلا عند الضرورة القصوى، وأُطلِق على هؤلاء أهل الحديث، ومنهم أكثر مجتهدي الحجاز (**المالكية**).

والثالث: اختلافهم في بعض المبادئ الأصولية اللغوية التي تُطبَّق في فهم النصوص.

نشأ هذا من اختلاف وجهات نظرهم في استقراء الأساليب العربية، فمنهم مَن رأى أنَّ النّص كما يثبت الحكم به من خلال منطوقه فإنَّ الحكم يثبت أيضاً من خلال مفهومه، وهم الجمهور، بينما خالفهم الحنفية في ذلك ولم يحتجوا بمفهوم المخالفة، ومنهم مَن رأى أنَّ العام الذي لم يُخصص هو قطعي في تناوله جميع أفراده، وهم الحنفية، رأى بعضهم الآخر أنّه ظني في ذلك، وهم الجمهور، ومنهم مَن رأى أنَّ المطلق يحمل على المقيد ولو اختلف السبب طالما أنَّ الحكم قد اتحد، وهم الشافعية، بينما خالفهم في ذلك الحنفية فلم يحملوا المطلق على المقيد إلا عند اتحاد الحكم والسبب.

هكذا سار الفقه الإسلامي في رحلة نشوئه وتطوره وارتقائه ضارباً جذوره في عمق التاريخ حتى بلغ ما قد بلغ، وعلا شأنه حتى أصبح أعظم ثروة تشريعية عرفتها الأمم قاطبةً عبر العصور والدُّهور والأزمان.

العلم الحقيقي

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]

لا يقتصر العلم على المشاهدة فحسب، فالعلم المقبول إنما هو إدراك سبب مجيء الإنسان إلى الدنيا وخروجه منها.

العلم، بلوغُ الحقيقة بالتخلص من أَسْرِ النفس قبل الموت، ومعرفة في مُلكِ من نحيا.

العلم، الدأبُ على إدراك تجليات قدرة الله تعالى وعظمته، وفهم الإشارات الإلهية في كل شيء؛ أي فهم لسان حال المخلوقات، وحلُّ سرِّ الوجود في هذا الكون بمعرفة الحِكَم المبثوثة فيها.

كيف لنا التخفيف من السيئات

من حديقة القرآن الكريم
جعفر دورموش

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[هود: ١١٢-١١٥]

هذه الآيات المباركات تذكرنا ببعض الركائز الرئيسية التي تمس إسلامنا. وهذه الركائز هي الالتزام بالاستقامة، وعدم الطغيان، والأخذ بعيني الاعتبار أن الله تعالى يرى ويعلم كل ما نقوم به. وعدم الميل إلى الظالمين والركون إليهم، والحذر من العذاب الإلهي، والإدراك التام أن الله تعالى ولي المؤمنين ونصيرهم. وإدراك أننا إن لم نكن بهذا الشعور والإحساس فلن نر العون منه سبحانه وتعالى. وأداء الصلوات في أوقاتها بإخلاص وخشوع مع مراعاة تعديل الأركان، والحرص على أدائها مع الجماعة قدر الإمكان. ونتيجة كل ما تقدم ستخفف الذنوب والسيئات التي يتم اقترافها في حالات الضعف بحسب الطبيعة البشرية التي خلقنا عليها، وهذا ما نريد الإشارة إليه والتوقف عليه. أجل، الآيات التي تشكل موضوع حديثنا تذكر بالأمور التي وردت آنفاً لمن أراد الذكرى والعظة، وتوصي بالصبر ليوفق الإنسان في أدائها. وتبشر أنه لن يضيع أجر المحسنين الذين يعملون الصالحات. وفي الحقيقة فإن هذه المسائل المذكورة تستوجب كل واحدة منها الوقوف عليها ودراستها على حدة. إلا أننا سنتوقف هنا على جملة أو عبارة واحدة منها فقط.

عندما أقرأ هذه الآيات تنتابني مشاعر أن القرآن الكريم ينزل كل لحظة على قلوب المؤمنين. فحينما نجلس أمامها بتفكر وتعمق فإن آية واحدة من القرآن الكريم أو حتى جملة منها تفتح لنا آفاقاً لا حدود لها. وما يدفعني إلى هذا التفكير والاعتقاد هي جملة "**الحسنات يذهبن السيئات**". فيا لها من تذكرة شاملة وواسعة يا رب! يا لها من عبارة مشجعة على جعل الحسنات والصالحات مهيمنة على كافة ميادين وجوانب حياتنا!.

وإن ورود بشارة "الحسنات يذهبن السيئات" بعد الأمر بالصلاة مباشرة له أهمية. لأن الصلاة هي رأس الأعمدة

التي تحفظ إسلامنا وتجعله متماسكاً وتمنعه من التصدع والسقوط. فالعلامة الفارقة التي يكلف بأدائها كل عاقل بالغ دخل دائرة الإسلام بنطق الشهادتين وتشرف بها هي الصلاة. وحسب ما ورد في التفاسير فإن كل صلاة حسنة. والمؤمن الذي يداوم على الصلوات الخمس في اليوم تُمحى سيئاته التي اقترفها حسب طبيعته البشرية. ويبشرنا رسول الله ﷺ بقوله:

"الصلوات الخمس... مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر" (مسلم، الطهارة ١٦)

وجاء في الآية القرآنية:

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ ...﴾ (العنكبوت، ٤٥)

كما أن الصلاة التي يتم أداؤها بحقها مستوفية شروطها وأركانها وآدابها من شأنها الارتقاء بالعبد روحياً، ووقايته من الوقوع في الفواحش والمنكرات وفق ما جاء في الأحاديث والآية المذكورة آنفاً وغيرها، فقد ذكر كبار رجال الإسلام وعلماؤه أيضاً أن الصلاة التي لا تدفع صاحبها إلى عمل الخير والحسنات، ولا تمنعه من السيئات والمنكرات ستكون حملاً ثقيلاً ووبالاً عليه.

ولكن حسب ما ورد في التفاسير فإن إذهاب الحسنات للسيئات ليس أمراً محصوراً بالصلاة وحدها فقط. فقد وردت الصلاة في الآية الكريمة التي تشكل موضوع حديثنا على سبيل المثال لا الحصر. فالأمر ذاته ينطبق على العبادات الأخرى أيضاً. فكل عمل حسن وصالح يفعله الإنسان بإيمان يبعده عن السيئات والفواحش. ويكون وسيلة لمغفرة الذنوب، ومحو السيئات.

إن الحياة تمضي بالصراع بين الحسنات والسيئات. وكافة الحسنات أضداد السيئات، ولعلها خصمها. وقد أشير في الآيات إلى ضرورة ووجوب الإكثار قدر الإمكان من الصنف الأول من هذين الضدين. إذ عندما تكون في وعاء كتلة مؤلفة من عدة مواد، وتتم زيادة مقدار إحداها، فمن الطبيعي أن تخف وتقل المواد الأخرى. وعند الاستمرار في الإضافة والزيادة فإن لون المادة المضافة، ورائحتها، وطبيعتها سوف تطغى على الأخرى في الوعاء حتى تقضي عليها وتمحو آثارها. نستنتج من الآيات القرآنية الكريمة أن أسلم وأفضل طريقة للتخلص من الرغبات الدافعة نحو السيئات، وتحقيق الارتقاء والسمو الروحي إنما هي ذكر الله تعالى بالمعنى الأوسع. وذلك يكون بتلاوة القرآن، والصلوات. فتلاوة القرآن مع التأمل والتفكر في معاني آياته تفتح أمام القارئ أبواب الكثير من الحكم والعبر التي لم يصل إليها من قبل، وتدفعه إلى مشاهدة المشاعر والأفكار في عوالم علوية. وما الأحاديث الكثيرة التي تحث على تلاوة القرآن إلا دليل على هذا. فمن المهم للغاية أن تعتاد الشخصية على أداء الصلاة بمحبة وخشوع وإخلاص. فلا يُتصور أن يقدم مصل واع على ارتكاب المعاصي والإصرار عليها عن عمد.

عن أبي ذر رضي الله عنه، قال:
يا رسول الله، أوصني. قال ﷺ:
«إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها».
قال: يا رسول الله، أمن الحسنات لا إله إلا الله؟
قال عليه الصلاة والسلام: **«هي أفضل الحسنات»**.
(مسند أحمد، ٢١٤٨٧)

نرى من الواجب الوقوف على كل واحد من الأمور والخصال التي يجب توفرها في المسلم الكامل ابتداء من تلك المذكورة في الآيات التي تطرقنا إليها في الأعلى. فيجب محاسبتنا أنفسنا على مدى التزامنا واتصافنا بهذه الصفات مثل الاستقامة، والميل إلى الظالمين، والشعور بالمعية وغيرها، والتساؤل عن موقعنا من كل واحدة منها.

إن طريق التحفيف من السيئات التي تقضم إسلامنا وتنخره والتخلص منها هو الإكثار من الحسنات والصالحات. وبناء على ذلك فإنه من المهم والمصيري العمل على زيادة الأجوبة الإيجابية عند استجواب النفس ومساءلتها.

رابعة برودبك

الصراط المستقيم

إن الالتزام بالصراط المستقيم هو الإصغاء إلى الخطاب الإلهي (ألست بربكم؟) والاستجابة لهذا النداء، والسعي لتأكيد وإثبات هذه الاستجابة بالتطبيق العملي في مختلف جوانب الحياة.

يولد الإنسان مؤمناً على الصراط المستقيم بالفطرة، ولهذا فإن الصراط المستقيم هو نفسه الحياة التي نعيشها في الدنيا. وأول من خطا في هذا الدرب أبونا آدم عليه السلام. ولهذا فإن اتباع سيدنا آدم عليه السلام واجب. لأن طريقه طريق الصلاح، طريق الشفاء. الذي يدفع المرء إلى السير مثله حافي القدمين على رمال الصحراء اللاهبة، ونار العشق والبحث تتأجج في القلب، ودموع الوجد تنهر كالسيل من العينين.

إن كل لحظة من حياتنا تعني الخطوة المطلوبة لأن يكون الإنسان على الصراط المستقيم. ولكي نخطو هذه الخطوات في الاتجاه الصحيح فإننا في أمس الحاجة إلى النظر بنور هداية الله تعالى، والسمع ببصيرته، والفهم والإدراك بالحكمة التي منحها لنا. وهذا هو أحد معاني أن يكون الله ﷻ عين العبد التي يبصر بها، وسمعه التي يسمع بها، ويده التي يبطش بها. والإنسان لا يستطيع السير على هذا الطريق بنفسه، وإنما يتم تسييره من الله تعالى. فالمطلوب منا التحلي بالنية الصادقة المخلصة، وبذل الجهود التي من شأنها استجلاب محبة الله تعالى وعونه.

إن الاتباع هو ما يجعل الإنسان مسافراً على الصراط المستقيم. وقد تم بيان مبدأ الاتباع من قبل دين الإسلام. وقد بدأ الإسلام مع الإنسان الأول في الكون وهو آدم عليه السلام. وبتشريف سيدنا محمد ﷺ إلى هذه الدنيا فُتح أمام الأتباع الطريق المتجه نحو أنوار الحقيقة، وخزائن المحبة. والوصول إلى كل هذا وبلوغ كمال العشق لا يكون إلا بمحاولة فهم النبي ﷺ وسنته السنية، والولوج إلى غمار الحياة. وإن بلوغ الإيمان الكامل والحقيقي لا يكون إلا باتباع الصحابة الكرام أقرب الأتباع إلى النبي ﷺ، والذين اتبعوهم بشكل سلسلة متصلة. الاتباع الحقيقي يعني أن تُحْكِمَ رغبةُ الانقياد وشوق التعلم، وإرادةُ التحول إلى عبد للعلم والعرفان، والاشتياق الجارف لشم

روائح الأسرار الإلهية، وللبحث عن الكنوز الخفية، والعثور على ماء الحياة سيطرتَها على كيان الإنسان. أي باختصار ينبغي على من يريد التعلم، والاهتداء بنور الهداية أن يحب أحباء الله تعالى، وينتفع بعرفان عبوديتهم الفريدة.

إن من ينير الطريق هم نفسهم. هذا الطريق بالنسبة لمن يتفكرون هو المرشدون ذاتهم. إنهم عباد الله المختارون الذين عاشوا على هذا الطريق بأجمل صورة وأناروه للناس كافة من الأنبياء والرسل وفي مقدمتهم حبيب الهدى محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومن ساروا في حياتهم وفق حقيقة "إن لم تكن تراه فإنه يراك" من الأولياء، والشهداء، والعاشقين.

إن العبادة، والتسليم والطاعة، المطلوبة منا لنكون على هذا الطريق إنما هي في الحقيقة من شأن المحبة. أي أن يكون قلبنا بحالة حرب وصراع المحبة على الدوام. وللانتصار في هذه المعركة يجب القيام بكل الأعمال بالقلب. فالقلب يحج، ويطوف، والقلب يسجد، والقلب يصوم ويخدم، والقلب يجاهد. وبذلك ننجو بأنفسنا من أن نكون حبيس عاداتنا، وأيامنا ولياليا المباركة التي نحتفل بها، والخدمات التي نقوم بها. وإذا لم نتقدم بالقلب فإننا سوف نحبس صيامنا بشهر رمضان المبارك، وحجنا بموسم الحج، وصلاتنا بالسجادة، وزكاتنا بيوم معين من السنة، ومناسباتنا المباركة كالمعراج والقدر بليال معينة. وفي هذه الحالة لن تتطهر قلوبنا من المحبة لغير الله ﷻ. يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"كل شيء ما عدا جمال الباقي وعشقه ومحبته عذاب. الحرمان من ماء الحياة ونحن على طريق الموت عذاب".

علينا إصغاء السمع لصوت فطرتنا القائمة على الصراط المستقيم. وإلا ضللنا عن الطريق القويم، وابتعدنا عن جوهر فطرتنا. فعدم الإصغاء لهذا الصوت يسبب لنا الصمم، ويزيد فينا اللامبالاة، وتلبد المشاعر، وانعدام الإحساس. فنغترب عن أنفسنا، ونصبح أعداء لها، ومن ثم نكون قد ظلمنا أنفسنا. فيجب علينا التضرع إلى الله تعالى لأن نكون مع الصالحين والكاملين من أهل التوحيد، لا مع الحمقى والضالين من أهل الجهل حتى لا نضل عن هذا الطريق، ونتقدم عليه بأمن وأمان، وسرور، واطمئنان. لأن الإنسان يصطبغ بحال من يصاحب. فعباد الله من أهل التوحيد يسعون على هذا الطريق خلف الحقيقة، ويطلقون الدنيا، ويستقبلون الموت ببهجة وسرور لأنه سبيل اللقاء بأفضل الأولياء. وأما العباد الضالون عن هذا الطريق فإنهم يسعون خلف المصالح، فيطلبون الدنيا ويخشون الموت.

وطالما أننا سعينا جهد استطاعتنا لصحبة من هم على الصراط المستقيم، وفي الوقت ذاته جاهدنا أنفسنا فإن الطريق سوف يوصلنا إلى الهدف النهائي الذي لا خوف ولا حزن معه. يقول الله ﷻ:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(يونس: ٦٢)

هذا الطريق طريق الحصول على التربية والشفاء. فمن لا يريد الشفاء لا يمكن أن يتلقى التربية، ومن لم يتلق التربية لا يمكنه السير على هذا الطريق. وأما بشأن وجود الرغبة بالشفاء فلا بد أولاً من أن يدرك المرء أنه مريض. فلا يطلب الشفاء من صميم قلبه ويسعى خلفه بكل طاقته إلا من كان يعرف أنه مريض. وبذلك يمكن للمريض الذي يبدأ العلاج في مشفى الحكمة أن يحصل على الشفاء.

هذا الطريق مليء بحيل ومكائد للشيطان لا حصر لها، ملغوم بالغرور والكبر، وبالشراك التي تُضعف العزيمة، ومحفوف بالمخاطر، والعوائق. وكي يجتاز المرء العوائق والحواجز،

ويتغلب على المصاعب الموجودة على هذا الطريق لا بد من أن يتوجه إلى جهاد النفس بأن يُجاهدها على تعلّم الهُدى ، والعمل به بعد عِلمه ، والدعوة إليه، والصبر على مشاقّ الدّعوة إلى الله ﷻ.

لا يمكن أن ينال الجنة ونعيمها وجمالها إلا الذين يبذلون جهدهم، ويخوضون الصعاب، ويتحملون المشقات، ويجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم لأن يكونوا على الصراط المستقيم.

لا يمكن الحصول على الحقيقة دون تضحية. فهذا الطريق طريق الامتحان، ولا يمكن التقدم في هذا الطريق إلا بالعمل على النجاح في هذا الامتحان.

وعلينا أن ندرك جيداً أن تصدينا بصبر وثبات لكل صعوبة نواجهنا إنما سيكون وسيلة للتقدم على هذا الطريق.

والشرط الذي لا بد منه لهذا الطريق هو مواجهة الإنسان لذاته. ومحاسبة النفس إنما هي الموت قبل الموت. فبهذه المحاسبة يعرف المرء نفسه، وحينها فقط يمكنه معرفة ربه كما أخبر بذلك خاتم الأنبياء ﷺ. فلا يمكن لمن لم يعرف نفسه أن يعطي هذا الطريق حقه.

هناك خصلتان تضمنان قطع أكبر مسافة على هذا الطريق هما "الجوع"، و"القرب". أما الجوع، فهو الصوم عن الدنيا في الدنيا، وتحويل الرغبة بالملذات الدنيوية إلى حنين إلهي وشوق بالوصل. فاطرُق باب الجوع كما قال نبينا المبعوث رحمة للعالمين. وأما القرب فهو التضحية بحياتنا في سبيل من وهبها لنا، والاستشهاد على هذا الطريق ونيل مقام الشهادة. واتحاد هذا النوع من الجوع والقرب مع بعضهما يقودنا إلى الفقر الذي امتدحه نبينا عليه الصلاة والسلام بقوله "فخري فقري". والفقر أو العدم أو الفناء هو جنة القرب ذاتها، وهي كذلك أجمل واسطة تقود إلى الجنة. يقول مولانا جلال الدين الرومي: "أيها القلب! لن يمنحك أحد هذا الطريق بالقيل والقال وكثرة المقال. لن تر الوصل دون المرور من باب العدم. لن يعطونك أجنحة أبداً إذا لم تخفق طيوره بأجنحتها في السماء التي تحلق فيها".

لا بد لمسافري هذا الطريق النظر إلى الأعلى والأسفل بدل النظر إلى اليمين والشمال، والاهتمام بمن في الخلف والمقدمة. فكما أن النجوم في السماء تهدينا في طريقنا، كذلك فإن الأنبياء والرسل وأولهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ "السراج المنير"، وأصحابه الكرام ومن سار على دربهم بعشق وحب من الذين نسوا أنفسهم من الأولياء، والشهداء ينيرون دربنا، ويعلموننا السير على هذا الطريق. فينبغي علينا النظر إلى الأعلى والشعور بالمحبة والإعجاب، والاشتياق لتعلم الطريق والتقدم عليه منهم، والاتصاف بصفة المريد، وطلب هذا الطريق المنير بكل توق وحب. وفي الوقت ذاته ينبغي النظر إلى الأسفل والاشتراك في تلبية حاجات المحتاجين. ويجب أن نرحم الفقراء، والمحتاجين، والمكروبين، واللاجئين، والضعفاء، والمضطهدين الذين يئنون تحت الظلم. وأن نسعى لتوفير احتياجاتهم سواء المادية أو المعنوية. فلا يمكننا نيل رحمة رب العالمين وعفوه، والتقدم على هذا الطريق إلا بهذا.

> يقول مولانا جلال الدين الرومي: "إذا سرت على طريق الحق، تُتح لك الطرقات. وإذا تجاوزت أناك وفنيت، فسوف يوصلك إلى الوجود الحق. وإذا تغلبت على نفسك وأظهرت التواضع لم تسعك الدنيا. وحينها سيريك نفسك دونك".

إن هذا الطريق الذي يقودنا إلى الآخرة، إلى الحياة الأبدية التي لا حدود لها ما هو إلا طريق القرآن والسنة. إنه مرشدنا، ومصدر فيوضنا، وإلهامنا، وعشقنا، وخلاصنا. إذ أن العون الإلهي، والنور الإلهي، والرحمة والبركة والإلهية إنما تتدفق دائماً على هذا الطريق.

عبرة من التاريخ

أَماتَ النسرُ وحلّ الحَمل مكانه؟

ولد عاشر السلاطين العثمانيين السلطان سليمان القانوني عام ١٤٩٥ في ولاية طرابزون. وأرسل إلى اسطنبول ليتلقى التربية في العاصمة تحت رعاية جده بيازيد الثاني. فالأندرون والبيرون في اسطنبول هي قلب التربية والتعليم في القصر. وبعد أن تلقى الأمير سليمان القانوني العلوم العقلية والنقلية هنا تم إرساله إلى سنجق وهو في عمر ١٤ عاماً، وذلك حسب التقاليد المطبقة على أفراد العائلة الحاكمة. فوفق هذه التقاليد التي بدأت منذ عهد مراد الأول فإنه يتم إرسال الأمراء قبل الصعود للعرش إلى أحد السناجق تحت رعاية ونظر اللالا وهم شيوخه وأساتذته، ويخضعون للتجربة والاختبار في إدارة الدولة.

عُين الأمير سليمان القانوني أميراً على سناجق قاراحصار الشرقية، ثم بولو على التسلسل، وفي النهاية أسندت إليه وظيفة الإمارة على سنجق كفا في القرم بلد أمه. كما وساعد أباه سليم الأول في صراعه مع جده بيازيد الثاني على العرش. وبعدها عُين أميراً على سنجق صاروخان (مانيسا) عام ١٥١٢. وقد نجح أبوه السلطان سليم الأول خلال مدة قصيرة هي ثمان سنوات في حل مسألة الشرق. فأسبغ على السلاطين العثمانيين لقب الخليفة، وأسس نظاماً عسكرياً واقتصادياً قوياً. وبعد أن رحل عن الدنيا عام ١٥٢٠بسبب دملة كانت قد خرجت في ظهره استدعي الأمير سليمان ليجلس على كرسي الدولة باعتباره الوريث الوحيد للعرش.

لم يقم السلطان ياووز سليم بأي حملة نحو الغرب لانشغاله بحل مشاكل الشرق. وكانت البابوية تخشى كثيراً من توجه السلطان ياووز سليم إليهم، ويروى أنه لما وصل خبر وفاة السلطان إلى روما فرح البابا فرحاً شديداً حتى أنه قال: "مات النسر وحلَّ الحمَل مكانه". إلا أن الولد سر أبيه. فكان السلطان سليمان بمثابة طائر الطغرل الأسطوري الأضخم من النسر، حيث بدأت معه فترة حكم طويلة امتدت لستة وأربعين عاماً تحولت فيها الدولة إلى امبراطورية عظيمة.

ظِلُّ الحق على الأرض

كان أكثر صراع وحرب السلطان سليمان القانوني خلال فترة حكمه مع النمساويين. فبعد محاولات الملك المجري الهجوم على الأراضي العثمانية ورفض الجزية التي كان يدفعها سابقاً ومواجهة العثمانيين تمكن السلطان القانوني من استعادة إيالة بودين وإلحاق الهزيمة بالمغامرَين اللذين كانت تربطهما

صلة قربى. ومن ثم لحق بهما ليدفعهما إلى المواجهة الميدانية، حتى وصل إلى أبواب فيينا. إلا أن هذان الحاكمان الطامعان ما كانا يجرؤان على خوض مواجهة ميدانية لما شاهدوه من سطوة وقوة الجيش العثماني في معركة موهاج. ففرض العثمانيون حصاراً على فيينا، إلا أن قسوة الشتاء وكثرة الثلوج دفعتهم إلى فك الحصار والتراجع عنها. واستمر زحف العثمانيون وتقدمهم حتى غزوة ألمانيا في عام ١٥٣٢. وفي نهاية الأمر عرض أرشيدوق النمسا الصلح على العثمانيين. حيث أدركوا أنه ما من طريقة لوقف زحف العثمانيين إلا أن يعقدوا معهم معاهدة يقبلوا فيها بشروطهم. وبهذه المعاهدة عام ١٥٣٣التي سميت بمعاهدة اسطنبول أخضع العثمانيون أقوى دولة في العالم وقتها. ووفقاً لهذه الاتفاقية أصبح زابولو المدعوم من السلطان القانوني ملكاً على المجر، رضخت النمسا لدفع الجزية للدولة العثمانية. إلا أن أهم بنود المعاهدة

كان أن يقبل حاكم النمسا بالمساواة بينه وبين الصدر الأعظم العثماني في البروتوكولات التي يُذكر فيها" كملك". وبموجب هذه المعاهدة لم يكن يحق لحكام النمسا ولو فيما بينهم مخاطبة أحد بالإمبراطور غير السلاطين العثمانيين، وكان لزاماً عليهم إطاعة السلطان العثماني كطاعتهم "البابا". فالسلطان العثماني من الآن فصاعداً "ظل الله على الأرض". فكما أن للكون إله واحد، فإن له في الأرض خليفة واحد ألا وهو الحاكم المسلم!

ملحمة تحمل الإنسان على الاعتقاد بقرب القيامة

يُعد السلطان سليمان القانوني إلى جانب الفاتح من أكثر السلاطين العثمانيين الذين خاضوا حروباً. فخلال فترة حكمه التي استمرت ستة وأربعين عاماً فتح في روملي وحدها ٣٦٢ قلعة، فانتزع الأراضي التي تتبع هذه القلاع من أيدي الكفار وجعلها أرضاً إسلامية. وكتب السلطان القانوني بالخط الهمايوني عن فتح اليمن قائلاً: "إن فتحنا اليمن ليس طمعاً بالملك، وإنما من أجل حماية مكة والمدينة". استلم القانوني الحكم من والده المرحوم السلطان ياووز سليم خان ومساحة الدولة تبلغ ٦٥٥٧٠٠٠ كم٢. ونتيجة الفتوحات والحروب التي خاضها في البر والبحر تضاعفت مساحة دولته، حيث بلغت حين وفاته ١٤٨٩٣٠٠٠كم٢ ، وبذلك أصبحت أكبر دولة عرفها التاريخ. ومع الدولة القوية والمترامية الأطراف التي خلفها السلطان سليمان بعد ٤٦ عاماً من الحكم بدأت المصادر الغربية تستخدم تعبير "العصر التركي" لدى الحديث عن القرن السادس عشر الميلادي. إذ أن كلاً من الدولة والمجتمع كانا قد بلغا معاً الذروة في تلك الفترة، وليست الدولة وحدها. حيث كانت فترة خالية من المجاعات والقحط، والأوبئة والأمراض الفتاكة. وتُعد المدارس السليمانية المؤسسة في منطقة السليمانية اليوم من أعظم المدارس التعليمية والتربوية في ذلك العصر. وشهد الفقه الإسلامي عصره الذهبي مع ابن كمال، وأبو السعود. وبينما كان يدير شؤون الدولة صدر أعظم من أمثال صوقوللو محمد باشا، كان

يحكم البحار قائد عظيم من أمثال خير الدين بربروس. وكان سنان معماري العصر، بينما كان فضولي، وباقي من أشهر شعراء ذاك العصر. ودفع هذا العصر الذهبي الذي شهدته الدولة العلماء إلى القول:

"إن القيامة اقتربت، فقد بلغت دولة الإسلام الذروة".

نظيري في الحال، وصاحبي في الآخرة

كان السلاطين العثمانيون الذين حكموا العالم يفتحون الحصون والقلاع، ويعيدون رسم الحدود من جديد، ويغيرون مسار التاريخ، ويزيحون الملوك عن عروشهم. وبينما كان السلاطين العثمانيون يركعون العالم أمامهم، كانوا هم يركعون أمام العلماء ممثلي "الدين المبين". حيث كان السلطان سليمان القانوني الذي كانت فترة حكمه أعظم مراحل التاريخ الإسلامي وأكثرها بريقاً ووهجاً، كان يقف بإجلال أمام الشيخ أبي السعود، وإن استدعى الأمر يتراجع عن الأوامر والقرارات التي أصدرها تلبية لطلبه. فكان السلاطين العثمانيون يتماهون مع هؤلاء العلماء الذين يمثلون أحكام الإسلام، فهم في الحقيقة لدى وقوفهم أمام هؤلاء العلماء الأجلاء، وجلوسهم معهم يتناسون أنهم حكام الأرض، ويضعون مناصبهم جانباً. كانت المحبة والمودة التي تجمع بين السلطان القانوني وشيخ الإسلام أبي السعود قوية ومتينة لدرجة كبيرة، إذ أنه يبدأ في أحد رسائله إلى الشيخ بقوله: إلى الملا أبو السعود أفندي، إلى من حاله من حالي، وسنه من سني، وصاحبي في الآخرة، ورفيقي على درب الحق...".

وكان السلطان سليمان القانوني وغيره من السلاطين العثمانيين يحصلون على الفتوى من دار الإفتاء/ شيخ الإسلام في معظم الأحكام التي يصدرونها والقرارات التي يتخذونها. وقد حصل القانوني بدوره على الكثير من الفتاوى من أبي السعود الذي كان يقدمه على نفسه. وكان الشيخ أبو السعود هو من أصدر الفتوى بشأن قتلة الأمير مصطفى والأمير بيازيد اللذين أعلنا التمرد والعصيان. ويروى أن السلطان سليمان القانوني كان يحمل معه صندوقاً صغيراً في حملة سيكتوار التي وافته المنية فيها، وسلم الصندوق إلى أبي السعود. ولما فُتح الصندوق وجدت فيه الفتاوى التي كان قد أصدرها الشيخ أبو السعود للسلطان سليمان حتى ذلك الوقت. فترحم أبو السعود على صاحبه ورفيق دربه وقد امتلأت عيناه بالدمع، وقال: لقد نجوت بنفسك أيها السلطان سليمان! أي ترى كيف سيكون حال هذا الفقير أمام رب العالمين يوم الحشر؟!".

قد تأسست كافة الآثار العظيمة في العمارة الإسلامية التركية في عهد القانوني على يد المعماري الكبير «سنان» وجامع السليمانية أشهر أعماله. وقد روعي في إنشاء هذا الجامع أمور دقيقة. حتى إنهم لم يضعوا الأحجار في أماكنها إلا على وضوء. وهذا التعبير الذي انتشر بين الأهالي يعبر عن هذه الحقيقة: "صاحب السليمانية سليمان، ومؤسسه سنان، وطينته الإيمان".بدأ فيه العمل بوضع حجر الأساس على يد «أبي السعود أفندي» شيخ الإسلام، واستمر العمل فيه سبع سنوات من عام ١٥٥٠ إلى عام ١٥٥٧م. وكان «السلطان القانوني» يخشى الله ويبذل أقصى ما في وسعه من أجل إحقاق الحق، ولما تم بناء «جامع السليمانية» والكلية الملحقة به، جمع كل العمال الذين عملوا في بناء الجامع، قال: "يا إخوتي في الدين، لقد تم بناء هذا الجامع الشريف بإذن الله، ولو كان فيكم مَنْ لم يأخذ حقه بطريق الخطأ فليأت ليأخذه".

د. فرات أردوغان

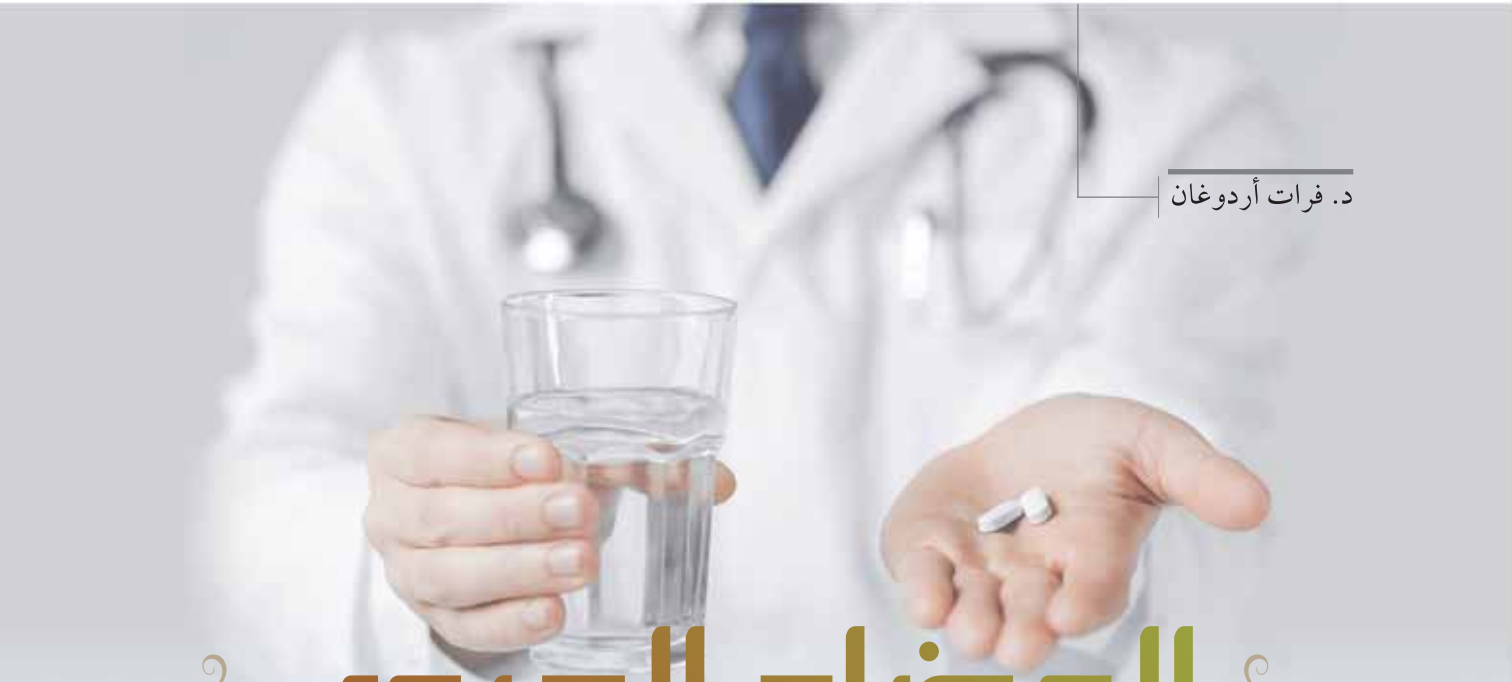

المضاد الحيوي ANTIBIOTIC ضد الحياة

تشكل المضادات الحيوية تقريباً ربع علم الأدوية الذي يتم تدريسه ضمن العلوم الأساسية في كليات الطب. وقرابة نصف العبارات والجمل المستخدمة بشأن الأدوية في الحياة اليومية تدور حول المضادات الحيوية. إن استخدام مسألة تقنية بحتة تعود إلى الطب الذي يُعد مجالاً علمياً شائكاً وواسعاً للغاية في الحياة اليومية، أكثر من استخدمها من قبل أهل الاختصاص هو السبب الأول لعدم تسليطنا الضوء على المسألة في مثل هكذا مجلة، ولكنه ليس السبب الأهم. المسألة المهمة الأساسية هو التهديد الذي يشكله للإنسانية ألا وهو الاستخدام غير المناسب، وغير الضروري، وأحياناً الاستخدام المشوب بالقصور والعيوب.

المضادات الحيوية أدوية مستخدمة لمعالجة أمراض العدوى والتلوث الجرثومي التي تتسبب بها الجراثيم من صنف البكتيريا. والكلمة مؤلفة من مقطعين، البيو: وتعني الحياة/ الحيوية، وأنتي: وتعني ضد، وعند ضمهما تصبح ضد الحياة، أي قاتل. ومن الناحية العملية تدل على المواد التي تقتل الكائنات الحية المضرة بأجسامنا. ولقد بدأ كل شيء بالمصادفة (أو هكذا اعتُقد !!). ففي عام ١٩٢٨م ، خرج الطبيب والباحث فليمينغ وهو طبيب في عطلة ونسي أن يغسل القوالب المستخدمة في إنتاج الجراثيم، ولما عاد وأراد تنظيف تلك القوالب لاحظ أن الأواني التي نسيها بالخارج بطريق الخطأ، بها هالة بيضاء، وليس في هذه المنطقة جراثيم، بينما هي موجودة وحية في المناطق الخالية من تلك المادة البيضاء. أدرك فليمينغ أن الهالة البيضاء المحيطة بالقالب كانت تقتل البكتيريا، وأن هذا العفن قد خلق دائرة خالية من البكتيريا حول نفسها. وأطلق تسمية البنسيلين على هذا الاكتشاف احتراماً لعائلة العفن هذه، هكذا تُروى قصة اكتشاف الدواء. وفي الواقع تذكر كتب التاريخ أيضاً أنه كان في عهد السلطان سليمان القانوني يتم إطعام الجنود الجبنة المصابة بالعفن لوقايتهم من الأمراض. وفي السنوات اللاحقة تمت معالجة الكثير من الأمراض المستعصية

والقاتلة بهذا الدواء الناجع. وتطور هذا الاكتشاف إلى دواء بالمعنى الحقيقي بعد الحرب العالمية الثانية بصورة خاصة. حتى أنه ظهر بعض الأكاديميين المتغطرسين الذي ادعوا أنه تم قتل أمراض العدوى وأغلق سجلها إلى الأبد. وفي الواقع كان مكتشف البنسيلين فليمينغ مدركاً أن السجل لن يُغلق. إذ أن هذه المادة المعجزة والخارقة كانت تقتل الجراثيم إلا أن تلك الميكروبات لم تكن تقف مكتوفة الأيدي منتظرة موتها. حيث أنه خلال فترة قصيرة تكاثرت جراثيم استطاعت فك شيفرة البنسلين وبتعبير تقني (طورت المقاومة)، وأنقذت نفسها من القتل. دفع هذا الأمر العلماء إلى إنتاج مضادات جديدة، فطُورت مقاومة ضد هذه المضادات أيضاً، وظلت هذه الدورة العقيمة مستمرة منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا.

وفي النهاية تم الوصول إلى إجابة جزئية عن السؤال الدائر حول كيفية وضع حد لتطور المقاومة ضد المضادات، وتمثلت هذه الإجابة الجزئية بحل وتفكيك آلية تطور المقاومة لدى الميكروبات.

تقوم الجراثيم في المحيط الذي لم يُقض عليها فيها لهذه الأسباب وأمثالها بتفكيك آلية تأثير تلك المضادات الحيوية. حيث تلجأ الميكروبات لطرق وحيل عديدة للتخلص من مفعول المضاد الحيوي المستخدم، فمثلاً قد يغير الميكروب باب الدخول الموجود في غشائه، أو ربما يغير بنية النقاط التي يتعلق بها الدواء فيضلله. إن المضاد الحيوي الذي تقول عنه علاج قطعي لا ينفع بشيء طالما أن هذا الميكروب موجود حتى ذلك اليوم. قامت جرثومة توبركولوز / مرض السل الذي اعتقد أنه قضي عليه، قام بفك شيفرة الأدوية الموجودة، ولم يتم اكتشاف دواء جديد له خلال السبعين سنة الماضية... والنتيجة ٢٥٠٠٠٠ حالة وفاة في العام. وتعد جرثومة المستشفيات، مثل جرثومات MRSA من المشكلات العالمية المتعلقة بالمضادات الحيوية التي ظهرت بالطريقة التي ذكرناها في الأعلى، وهذه الجراثيم معروفة بالبكتيريا آكلة اللحم التي لا يمكن إيقافها، وسمع بها الناس جميعاً من خلال تناولها في مختلف النشرات الأخبارية. وتحدث في الولايات المتحدة الأمريكية ٢٣٠٠٠ وفي أوروبا ٢٥٠٠٠ حالة وفاة سنوياً بالعدوى المرتبطة تماماً بهذه البكتيريا.

نحن الأول عالمياً!

عندما نختصر القضية في دولنا نكون أمام اقتصاد الصحة الذي نتعامل معه على ما يبدو بلامبالاة وكأنه لا أهمية له، وكأننا نقول وهل هو أهم من أرواحنا؟، ونجد أمامنا بشكل خاص مفاهيماً نهتم بها كثيراً في هذه الأيام مثل، الناتج المحلي والوطني. من المعروف أن وزارة الصحة ليست بالجهة المخولة بطباعة العملة، وإنما تقدم خدماتها بميزانية محدودة. فالمال الذي تدفعونه مقابل علبة دواء دون حاجة يتم اقتطاعه من مشروع مصيري وهام آخر. ولهذا علينا تسليط الأضواء على قضية اللزوم وعدم اللزوم قبل قضية المحلية التي هي مهمة بدورها. ومع الأسف فإن أحد العناوين المخجلة التي صرنا فيها الأول في التصنيف، هو كمية المضاد الحيوي التي استهلكناها. دعونا ندع الجانب المالي لعدد آخر ونتوقف على الصحة الشخصية.

- توجد في جسمك جرثومة من نوع الفيروس، إلا أنك استخدمت مضاداً حيوياً.
- لم يتمكن طبيبك من تشخيص الجرثومة المسببة لمرضك بشكل صحيح،
- أو أنه لم يصف لك المضاد الصحيح، أو لم يعطك الجرعة الكافية،
- أو في الوقت المناسب.
- تركت استخدام المضاد الموصوف لك دون إكماله لأنك شعرت ببعض التحسن.

كقتل الذبابة بقنبلة يدوية...

ولا بد عنا من الحديث عن أعضائنا (الميكروبيوتا) وعن الجراثيم الحميدة والنافعة التي تشكلها. وعن فيتامين ك الذي يتواجد أكثره في الأمعاء، ويحمي من نزيف الدماغ، وينتج الكثير من المواد حتى هرمون السيروتونين الذي يسبب نقصه الاكتئاب. وتُعد هذه العناصر أهم الآليات الدفاعية ضد الجراثيم الضارة والعدوة، ولكن رغم أنها صديقة لنا إلا أنها والعناصر العدوة تأتي من أصل أو جذر مشابه من حيث التكوين البنيوي. ولهذا عندما تدخل المضادات الحيوية المستخدمة إلى الدم، وتقوم بقتل الميكروبات الضارة الموجودة في العضو المصاب، فإنها تقضي على الجنود النافعة الموجود في طريقها أيضاً. فكل مضاد حيوي غير ضروري (وحتى ضروري) يتم استخدامه يزيد من احتمال استخدامك مضاداً حيوياً من جديد. فبسبب خطأ من الطبيب بشأن استخدام المضاد الحيوي قد تحتاج إلى استخدام مضاد حيوي من صنف أعلى. كما تعلمون فإن أحد أخطر أنواع العدوى في الكثير من الدول هو عدوى بنوموني (ذات الرئة)، وتتم معالجة هذه العدوى في هذه الدول بالبنسيلين الذي يُعد المضاد الحيوي الأولي، بينما صار يجري النقاش لدينا حول ما إن كان دواء سيفالوسبورينات وهو الجيل الثالث (أحد أعلى الأجيال) كافياً لمعالجة هذه العدوى. لا شك أنك إن استخدمت قنبلة يدوية في قتل ذبابة ضعيفة على الحائط بدل أداة بسيطة مخصصة لهذا الغرض فإنك ستنجح في قتلها بكل تأكيد، ولكن الجميع يدرك النتائج الوخيمة لهذا الفعل الطائش والأرعن. فإذا استخدمت أعلى جيل من المضادات الحيوية في معالجة التهاب مجرى التنفس العلوي الذي يُشك بحاجته إلى المضادات أصلاً، فإنك لا شك ستنجح في القضاء عليه ١٠٠٪، ولكنك ستدفع ثمناً باهظاً بقدر خسرانك حائط منزلك عندما تقتل الذبابة بقنبلة يدوية. وهناك من الأمثلة التي لا تحصى عن التطبيقات الخاطئة بشأن المسألة.

ليكون نافعاً...

دعونا لا ندع هنا مجالاً للفهم الخاطئ. فنحن عندما نسلط الضوء على الجانب القاتل للمضادات الحيوية غير المناسبة، فإننا لا نريد حجب أو تجاهل فوائد ومنافع هذا "اللطف الإلهي" الذي ينقذ حياة الناس إن استخدم بالطريقة الصحيحة على يد أهل الاختصاص.

إن حدث أن كان لنا مريض مصاب بمرض الملاريا لا أعلم إن شاهدتم مثل هذه الحالة؛ حيث ارتفعت درجة حرارته فوق ٤٠ درجة، وانتابه ألم لا يُحتمل، فإنه يصحو ويستعيد نشاطه أمام أعينكم بثلاث جرعات من المضاد الحيوي.

لنفترض أن طفلاً أصيب بالسحايا لمدة خمسة أيام، فهل يعيش؟ وإن عاش فماذا الذي سيحدث لعقله ومستوى ذكائه، ولا يُعرف هل ستبصر عينه، وتسمع أذنه. فمثل هكذا طفل يملأ الأجواء ضحكاً وابتسامات خلال عشرة أيام بفضل المضادات. فمنافع هذه النعمة أيضاً كثيرة لا تعد ولا تحصى كما يعلم الجميع.

إن الرسالة التي تريد مجلتنا توجيهها في هذا الأمر هي:

على المرء مراجعة أهل الاختصاص، والإصغاء إلى أهل الخبرة والشاهدات العلمية وليس إلى من يطل كثيراً على الشاشات، واتباع التعليمات والتوجيهات بحذافيرها وليس ما يروق له، وبرأيي على الإنسان تجنب التجارب المحفوفة بالمخاطر. ولا ننسى بالطبع أن نعمة الصحة، والشفاء شأنهما كشأن بقية النعم إنما هي من الله ﷻ الشافي.